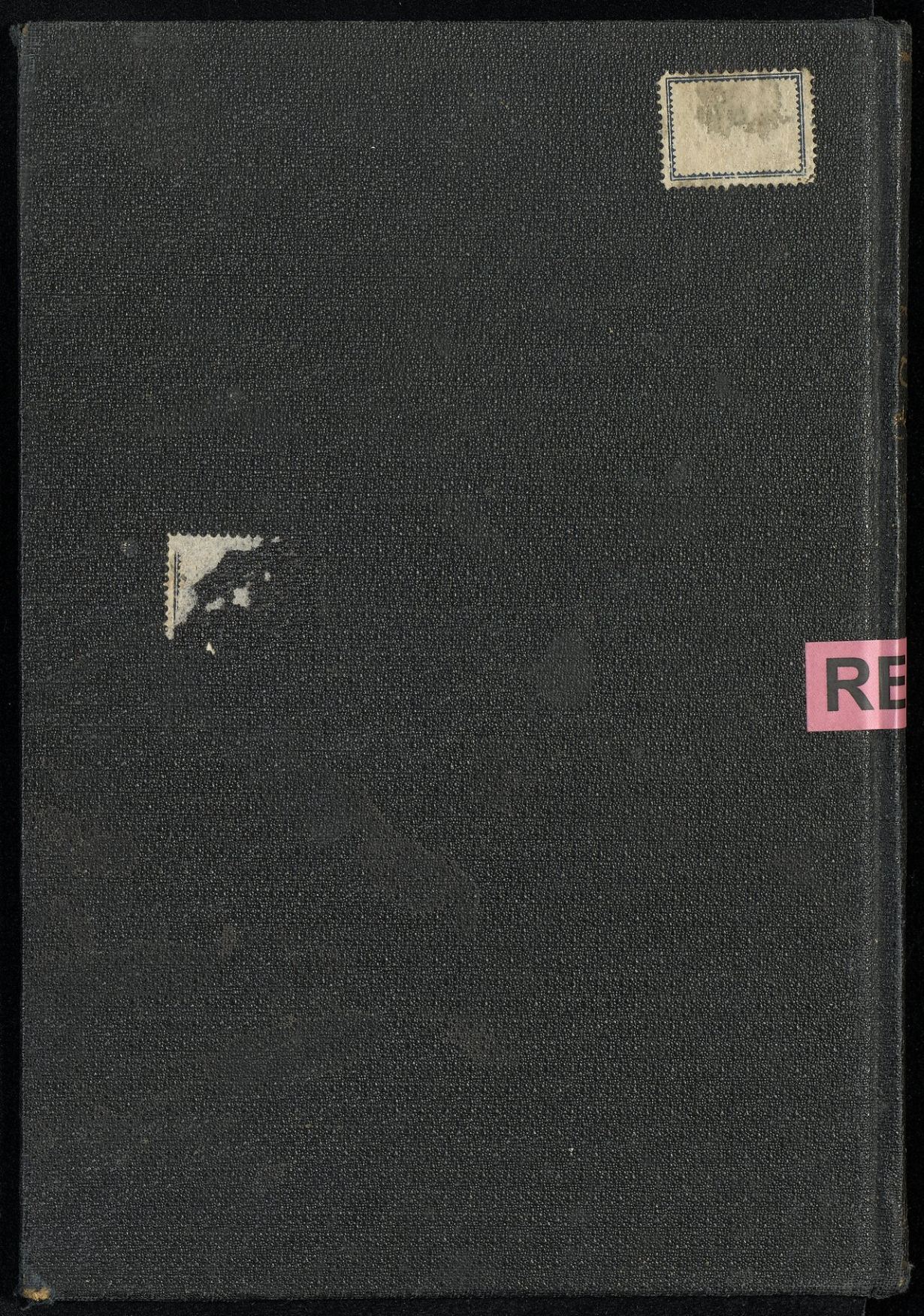

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

DUE DATE

SEP 30 1987

FEB 15 1988

FEB 17 1997

MAY 04 1997

201-6503

Printed in USA

روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنسباوية

«المرحوم»

احمد فتحي زغلول باشا

(الطبعة الثانية)

«عنى بتصحيحه ونشره»

توفيق الرافعي

(باذن من حضرة صاحب المعالي نصير الامة والوطن

«سعد زغلول باشا»

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

مكتب محمود حسين مهدلي المحامي الشرعي

محمود حسين محمد مهدلي السيوطي ١٠/١/٢١

« كلمة للناشر »

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

وبعد فهذا كتاب « روح الاجتماع » الذى وضعه العلامة نادرة الفلاسفة الدكتور جوستاف لوبون وقد هداه اليه بحثه الطويل فى تكوين الشعوب والأمم وتطورها وأوضاع تواريخها وتقلب حوادثها واختلاف مدنياتها واعتباره كل ذلك بالفكر النقاد والبحث الفلسفي العميق الذي امتاز به ذلك الفيلسوف العظيم

وقد كان من حظ اللغة العربية أن الذي نقل هذا الكتاب الممتع اليها هو الاستاذ العلامة المرحوم أحمد فتحى باشا زغلول وهو لا يقل عن المؤلف نفسه ذكاء ودقة واستنباطاً بحيث أخرج الكتاب إلى هذه اللغة وكأنه فى مطابقته للاصل خارج من قلم المؤلف لا من قلمه

وقد تفضل حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصرى فأذن لنا فى اعادة طبع هذا الكتاب ونشره خدمة للامة فكان ذلك فضلا جديداً لمعاليه علينا وعلى الناس نسأل الله تعالى أن يوفقه إلى صالح الاعمال والسلام

أغسطس سنة ١٩٢١ توفيق الرافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنسوي المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب (تمدن العرب) وضعه فى بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه (روح الاجتماع) ورأيت فى نقله الى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف فى ذلك فتفضل بالأجازة

طلب منى أن أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلا صادقاً صحيحاً فان معانيه تنساب فى نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان

أحمد فتحى

القاهرة فى اكتوبر سنة ١٩٠٩ زغلول

893.785
L49

اهداء الكتاب من المؤلف

الى تيوفيل ريبو مدير المجلة الفلسفية وأستاذ علم النفس في المدرسة الفرنساوية

علامة مودة

جوستاف لوبون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحث فى الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد فى أفراده بالتوارث لكن اذا اجتمع عدد من أولئك الأفراد للقيام بعمل من الأعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب وقد تختلف عنها فى كثير من الأوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير فى حياة الأمم إلا إن هذا التأثير لم يبلغ فى زمن من الأزمان مبلغه فى الزمن الحاضر فقد حلّ فى أيامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الأفراد المقصود لاربابه بالطبيعة وأصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة

وإني أحاول البحث في موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضة أعنى اننى أريد أن أتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الأمور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة

ولا سيما اذا كان الموضوع مما يشغل الافكار مثل موضوعنا فالعالم الذى يرمي ببحثه الى تقرير أمر من الامور لايهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح ـ قال عنى أحد كبار المفكرين وهو موسيو (جويليه دالفيالا) فى كتاب نشرناه حديثاً إني كثيراً ماخالفت في نتائج ابحاثى ما اتفق عليه الباحثون من أرباب المذاهب العصرية لأنى لست تابعاً لواحد منها وإنى لأرجو أن يكون حظ كتابى هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه إذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام مافيه من الاوهام

على إنى أرى من الواجب أن أوضح للقراء السبب فى انني أستخلص من بحثى نتائج تخالف التى يظهر بادئ بدء أنها نتائجه اللازمة كتقريرى مثلا انحطاط القوة المفكرة عند الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضل وذهابي مع ذلك الى أنه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلتني دائماً ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء فليس فى يدنا أن نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق أن تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً إلا ان ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من أسوأ المؤثرات فى الأمم مهما دلّ النظر على حسنها لأنها لا تكون مفيدة إلا اذا كان فى الامكان تغيير روح الأمة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين إنما هى الأفكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والنظامات إلاّ صورة من صور النفس العامة التى لنا وممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم أنه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الأمم التى ظهرت تلك الأحوال فيها لأنه إن صح نظراً ان لهذه الأحوال قيمة مطلقة فمن المحقق ان قيمتها عملا نسبية دائماً

لذلك ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع أن ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلى للباحث ان تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملى وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة إلاّ يسيراً انظر الى مكعب أو دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً . لكنها قد تحضر إمام العين بصور مختلفة فقد ترى المكعب هرماً أو مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطاً مستقيما ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقية لانها هى التي تتراءى أمامنا وهى التى يمكن للرسم أو لآلة التصوير أن تنقلها لنا ومن هنا جاز القول بأن الصورى حقيقى أكثر من الحقيقي فى بعض الأحوال لان تشخيص

الاشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم إلا رسم الأشياء أو نقلها بآلة التصوير من دون أن يتمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية فى أذهانهم على أن معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعنى العلماء لا يفيد إلا فائدة صغيرة جداً

إذن وجب على الحكيم الذى يبحث في الأحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الأحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الاولى هي التى لها شيء من الاهمية فى تطور المدنيات وملاحظة ذلك تقتضى الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطقى بادىء بدء

وهناك أسباب أخرى تدعو الى هذا الحذر منها أن الأحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف مالها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر ان الاولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو فى الغالب فوق بحثنا فمثل الحوادث الظاهرة مثل الامواج المتلاطمة التى تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع فى جوفه من الاضطرابات التى خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتى من الاعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطاً كلياً غير أن لها أعمالا أخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً أو طبيعة أو يداً صمدانية وسماها أهل هذا الزمان (صوت من في القبور) وعلى كل حال لا يسعنا أن ننكر ما لها من القوة وان جهلنا كنهها وكثيراً ما يظهر ان فى باطن الأمم قوى كامنة ترشدها وتهديها انك لا تجد شيئاً أكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً وأجمل خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشيء الغريب فى نظامه العجيب فى أسلوبه إلا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة وأعلم المجامع العلمية وأرقي النحويين انما يجهدون النفس فى تدوين قواعد اللغات وهم لاشك عاجزون عن خلقها كذلك لسنا على يقين من أن الافكار السامية التى يحدثها النابغون من فطاحل القوم انما هى عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن ذرات التراب التى تراكمت فصارت منبتاً لتلك الافكار انما كونتها روح الجماعات التى وجد أولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائماً عن الشعور بعملها وقد يكون هذا هو السر فى قوتها على أنا نشاهد فى الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجرد الالهام تأتى باعمال دقيقة يحار الانسان فى معرفة جليل صنعها ذلك أن العقل جديد فى الوجود الانساني وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الافعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها فى مكانها أن نصيب اللاشعور فى جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغايه والاول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا

وعليه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة فى معرفة الاشياء من طريق العقل ولا نهيم فى أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا ان نقتصر على تقرير الحوادث التى تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبنى على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً في غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التى نراها جيداً حوادث لا نراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلا

تمهيد

﴿ زمن الجموع ﴾

تطور أهل الوقت الحالى — فى ان تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم — اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات — فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية — كيف تسود سلطة طبقات الامة وكيف تجرى تلك السلطة — النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات — فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم — فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها — فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية — أهمية الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسى

.....

يخال الناظر فى أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الامم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسى عظيم كغارة الامم بعضها على بعض أو سقوط الاسر الحاكمة وهكذا لكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغير الكلي فى أفكار تلك الامم فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها وانما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغيير حال الامم المدنية يحصل فى الافكار والتصورات والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغير خفى فى أفكار الناس واذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى أن أشد أخلاق الامم رسوخاً عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آبائها

وأحرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان أصليان

الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التى تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة

والثانى قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة فى الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية

ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت الافكار التى ستحل

محلها فى دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر أن نتكهن بما قد يتولد يوماً من الايام من هذا الوقت المشوش كما أننا لا نعرف حتى الآن على أى الافكار الاسياسية والمبادىء الاولية يقوم بناء الامم التى تخلفنا ولكن الذى نراه منذ الساعة أنه سيكون امام تلك الامم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لانها أكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات تلك القوة التى قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التى كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد ان حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تتحكم فى الناس وهي القوة التى يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها فى القريب العاجل ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن أساسها وان أساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هى وحدها التى لا يهددها طارىء بل هي تعظم وتنمو وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأى الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب — أما الآن فالسياسة التقليدية هي التى أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذى يرسم للملوك خططهم وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء اليه وأمسى مصير الامم راجعاً الى ما تحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه أصحاب مشورة الامراء

فجلوس طبقات الأمم على عرش السياسة أعنى تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها هو من أخص مميزات زمن التحول الذى نحن فيه وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هذا التطور لان هذا الحق بقى ضعيف الاثر زمناً طويلا وكان فى مبدإ أمره سهل القياد وانما تولدت سلطة الجماعات رويداً رويداً بانتشار بعض الافكار التى رسخت فى الاذهان أولا وبتدرج الافراد في تكوين الجماعات للوصول الى تحقيق تلك النظريات ثانياً فالاجتماع هو الذى ولد فى الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادراكا تاماً فهو ثابت متين والاجتماع هو الذى جعلها تشعر بما لها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات) التى تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الأخرى وغرف

التجارة (البورصات) التى تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت فى حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة

والجماعات هى التى تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأي إلا ما رأته اللجان التى انتخبتهم

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى فى مراتب الوضوح وهى لا ترمي الى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها الى حالة الاشتراك الأولى التى كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية — تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء واحلال الطبقات الوضعية محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك

الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير وقد أصبحت بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى وعما قريب يكون للمذاهب التى نراها اليوم فى دور التكون من السلطان العظيم على الافكار ما للمذاهب التى رسخت أصولها فى الاعتقادات أعنى سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الأقدسين

ولقد استولى الهلع على قلوب الكتاب الذين لهم منزلة لدي الطبقات الوسطى فى الأمم وهم الذين يمثلون أكثر من غيرهم أفكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غير المبنى على التأمل الصحيح وحب الذات البالغ غايته فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذى أخذ ينمو ويعظم ومالوا الى مقاومة ما استحوذ على الافكار من الاضطراب فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الأدبي وتأثيرها الروحى بعد أن بالغوا فى احتقارها وغالوا فى اهمال جانبها ونادوا بافلاس العلم فى طريق تهذيب النفوس فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا الى الرجوع للتمسك بحقائق الوحى والتنزيل وفات أولئك المتدينين من جديد ان الوقت قد فات — واذا صح أن الفيض الالهى أخذ من نفوسهم فانه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتد كثيراً بما يقلق ضمائر أولئك الزهاد فلم تعد ترغب فى الارباب التى رغبوا هم عنها بالامس وكان لهم نصيب فى تحطيمها وليس

فى طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة لالهية جعل مياه الانهار تصب فى ينابيعها

ما أفلس العلم ولا ذنب له فى فوضى الافكار التى انتشرت في هذا الزمان ولا فى سلطة الجماعات التى تنمو وسط تلك الفوضى انما العلم وعدنا كشف الحقيقة أو على الاقل بيان النسب التي يربط الامور بعضها ببعض مما تقدر على ادراكه لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة أبداً والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا وأصم لا يصل اليه صراخنا وانما نحن الذين يجب عليهم أن يحملوا أنفسهم على الاتفاق معه إذ لا شيء يقدر أن يعيد لنا تلك الاوهام التى فرّت امام نوره

توجد علامات عامة ظاهرة فى جميع الأمم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لارجاء فى وقوفه آجلا ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا فكل قول فيه باطل لافائدة منه ومن الجائز أن تولى الجماعات قياد الأمم يكون خاتمة أدوار مدنية الغرب فيرجع إلى الانغماس فى أودية الفوضى التي يخال أنه لابد لكل أمة من اجتيازها قبل الوصول الى دور الحضارة والرقي ولكن أين السبيل الى منع ما هو كائن ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن فى هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على أنه كلما وهنت القوى الأدبية التى يقوم عليها بناء تقدم أمة من الأمم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التى سميت بحق متبربرة أما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكنا لم نر حتى الآن للجماعات أثراً مثل هذا فهي انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لان المدنية لاتقوم إلا على مبادىء مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على أنها غير أهل لتحقيقها اذا تركت وشأنها — ومثل الجماعات فى قوتها الهادمة مثل المكروبات التى تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادىء بدء أن العامل في حوادث التاريخ هو كثرة العدد

إنا لنخشى أن يكون هذا أيضاً مصير مدنيتنا لكن ذلك الذي لانعرف منه شيئاً حتى الآن

وكيفما كان الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات لأن أيدياً طائشة

أزالت بالتدريج جميع الحواجز التى كانت تمنع من طغيانها

كثر الكلام على الجماعات ونحن لانعرف من حالها الا يسيراً لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها فجهلوا أمرها على الدوام وإنما اشتغلوا بها فى الأيام الأخيرة من جهة ماقد ترتكب من الجرائم والآثام نعم توجد جماعات شريرة إلا أن هناك أيضاً جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة وهكذا فالنظر اليها من حيث الشر وحده نظر للشيء من جهة واحدة ولايتصل الباحث لمعرفة إدراك الجماعات ببحثه فى الجرائم التى قد تصدر عنها كما انه لايتوصل الى معرفة ادراك الفرد بالبحث فى عيوبه خاصة

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وساسوا الامم والممالك ممن شرعوا الاديان وأسسوا الدول ورسل المذاهب كلها وأقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة كانوا دائماً من علماء النفس وهم لايشعرون فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة فى أغلب الاحايين ومعرفتهم لذلك جيداً هى التى مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون واسع الخبرة بأحوال الجماعات النفسية فى البلاد التى انبسطت يده عليها ولكنه جهل غالباً روح الجماعات فى شعوب أخر كذلك كان شأن أكبر مستشاريه فانهم أيضاً لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الاجنبية عن أمتهم فقد كتب له (تايلران) أن أسبانيا تلاقي جيوشه لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو أنه كان على شيء من العلم بما ورثت تلك الامة من الاميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال . ذلك هو السبب فى أن نابليون قام فى بلاد الاسبان وفى بلاد الروسيا على الاخص بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم آخر ملجأ يأوى اليه السياسى العظيم لا لاجل أن يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها

واذا أردنا أن نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات فى الجماعات فانما السبيل إلى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على أحوالها النفسية وبذلك نفقه أيضاً إنه لا قدرة لها على تكوين رأى والتفكير فى شيء خارج عن الدائرة التى رسمت لها وانها لاتقاد بقواعد العدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها فلو أراد وازع فرض ضريبة جديدة وجب عليه أن لا يختار التي هى أقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد فى ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل أكثرها قبولا بالفعل

عند الناس فان كانت هذه الاخيرة أيضاً أقل وضوحاً وأخف حملا فى الظاهر كان ذلك أدعى الى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على أقسام صغيرة عند شراء حاجاتهم اليومية فهى لاتضيق عليهم فيما ألفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير محمود فاذا بدلت هذه الضريبة بضريبة الايراد أو الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت أصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هذه الضريبة أخف من تلك عشر مرات ذلك لان مبلغاً ذا قيمة ظاهرة حل محل فلس يدفع بالتدريج يوماً بعد يوم ووجب أداؤه دفعة واحدة وفى ذلك من موجبات الضجر مالا يخفى ولو انهم اقتصدوه درهماً الى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله لكن هـذه وسيلة اقتصادية تقتضي شيئاً من التبصر وذلك مالا تقدر الجماعات عليه

المثال الذى قدمناه من أسهل الامثال ومعرفة صحته ميسورة للكافة وهو لم يغب عن مفترس مثل نابليون ولكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لايدركونه لان التجارب لما تعلمهم أن الناس لايسيرون أبداً على مقتضى قواعد العقل وحده

ومن السهل الاكثار من الامثلة التى ينطبق عليها علم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاماً عدداً كبيراً من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل ادراك حقيقتها بدونه وسأبين في حينه أن السبب فى كون أكبر مؤرخى الاعصر الحاضرة وأعنى به المسيو (تاين) لم يفقه تماماً بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث فى روح الجماعات بل استرشد فى الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التي هى تصوير الحوادث ووضعها غير أن القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون الا شذوذاً مع تلك القوى هى التى تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة أحوال الجماعات النفسية ضرورية سواء أردنا من ذلك جانبها العملى أو الرغبة مجرد الوقوف على ماهو كائن فمن المفيد استكناه أسباب الافعال التى تصدر عن انسان كما أنه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الغراس

سيكون كلامنا فى روح الاجتماع موجزاً بمعنى أنه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القاريء منه الا بعض أفكار ترشد الى غيرها ولغيرنا أن يوغل فى الموضوع

أما نحن فانما نخططه على أرض لاتزال عذراء (١)

---

(١) قلت أن القليل من العلماء الذين بحثوا فى علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهة الجنائية منها أما أنا فلا أخص لهـذه الجهة إلا فصلا صغيراً من هـذا الكتاب لذلك ارجع القراء إلى مباحث موسيو (تارد) و رسالة موسيو (سيجيل) التى سماها (الجماعات الجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على أن ما استخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ماذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم

وسأنشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية وهنالك تتبين أهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على أن تلك القواعد تنطبق على موضوعات أخر تخالف الموضوع الذى نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ما شاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقى بمدينة بروكسل فى رسالة كتبها على الموسيقى وسماها إسما جديراً بمسماه وهو (فن الجماعات) و بعث إلى بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — إن كتابيك هما اللذان ساعدنى على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلا وهى قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواء كانت تلك القطعة جديدة أو قديمة وطنية أو أجنبية بسيطة اومركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت فى رسالته أن القطعة الموسيقية قد لايذوقها أشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة فى كسر بيتهم ويدركها لاول وهلة سامعون ليس لهم أدنى إلمام بقواعد الفن وأصوله

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس — فى ان مجرد احتماع عدد كبير من الافراد لا يكفى لتكوين جماعة — فى اتحاد وجهة افكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم — فى أن الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور — انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية — انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغييراً كلياً — فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن أو أردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم — سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الجماعات بالمعنى المتعارف اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا أو أناثا وعلى أى نحو اجتمعوا إما فى علم النفس فلها معنى آخر ففى بعض الظروف يتولد فى الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو موضوع واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة إلا انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصاً لم أجد لتسميته كلمة أليق من لفظ الجماعة المنظمة أو الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذى تخضع الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم أن مجرد اجتماع أفراد كثيرين اتفاقاً لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وان ألف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون

جماعة عند علماء النفس بل لابد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم أن اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والافكار نحو غرض واحد وهما الصفات الاوليان للجماعة أبان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود أشخاص عديدين فى مكان واحد بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهم تأثيراً شديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الأمة فان اجتمعوا اتفاقاً وهم تحت ذلك التأثير لبست أعمالهم ثوب أعمال الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقاً وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية الى أنواع وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التى تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على أنواع الجماعات ينبغى أن نأتى على بيان الصفات العامة لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون أولا الخواص التى تصدق على جميع أفراد كل فصيلة قبل أن يشرحوا الخواص التى تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة فى تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقاً لأن نظامها يختلف أولا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التى تقع على الجمعيات المذكورة غير أن هذه الصعوبة حاصلة عند البحث فى نفس الفرد الواحد لأن الفرد لا يحيي حياة واحدة لا تتغير إلا فى القصص والروايات وغاية ما فى الامر ان وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق فى الظاهر ليس إلا وقد بينت فى

غير هذا المكان ان فى جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغييراً فجائياً هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية أفراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل أو موثقين أولي سكينة هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنابوليون منهم أعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا أن نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب أن يكون بحثنا فى التي كمل نظامها فنعرف حينئذ ماقد يؤول اليه أمر الجماعات لاماهى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ أن الجماعة التي وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هى التي تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على مافي مجموعها من الصفات الثابتة التى لعامة الشعب وهي التي تتحد فيها الادارات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهى التى يظهر فيها ذلك الناموس الذى سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ماتشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ماهو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين مالها من الاهمية

أهم ماتمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك كيفما كان أولئك الافراد وكيفما تباينوا أو اتفقوا في أحوال معيشتهم وفى أعمالهم اليومية وفى أخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد أو يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الا عند الفرد فى الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى أجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له نقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وإنما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية ألا ترى انك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة ربين الفرد وحيداً غير انه يصعب الوقوف على السبب في ذلك ولكي يقربنا البحث من معرفة هذه الاسباب على وجه ما ينبغى أن لا نغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهي أن للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الاول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وأن حياة النفس الشاعرة ليست إلا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان أدق الباحثين تأملا وأبعد المحققين نظراً لا يسعه أن يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحوكة بل أن حوكاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموع أسباب لاشعورى متولد على الاخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الاباء والجدود التى لا يحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب أو الأمة التى نحن منها فوراء أسباب أعمالنا التى نقصدها أسباب خفية لا ارادة لنا فيها ووراء هذه أسباب كثيرة أخر أشد خفاء وأكثر غموضاً بدليل اننا لا نفقه شيئاً منها وجل أفعالنا اليومية صادر عن أسباب خفية تفوتنا معرفتها

يتشابه أفراد الشعب بالعناصر اللاشعوريه التي تكوّن روحه العامة وهم انما يفترون بالخواص الشعورية التى هى نتيجة التربية وبالاخص نتيجة وراثة استثنائية وأشد الناس افتراقاً من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا إلا نادراً فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم في الغالب أوهو ضعيف للغاية

هذه الصفات العامة في الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة فى جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هى التى لها المقام الاول في حركة الجماعات فتختفى مقدرة الافراد العقلية فى روح الجماعة وتنزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر فى عدم قدرتها أبداً على الاتيان بأعمال تقتضي فكراً عالياً وعقلا رجيحاً حتى لا تجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الكفاآت المختلفة وما

يقرره جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة لانهم لا يمكنهم أن يشتركوا فى هذا العمل إلاّ بالصفات العادية التى هى لكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لا الفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً بل الواقع أن فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لكن لو كان كل فرد فى الجماعات لا يأتى لها إلاّ بما اشترك فيه من الصفات مع غيره لكانت النتيجة حداً وسطاً فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتى تلك الخصال . هذا الذى نبحث فيه الآن

الاسباب التى تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة

الاول أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمواله مما كان يحجم عنه منفوداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لان الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى

السبب الثانى من الاسباب التى تولد فى الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التى يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهى من فصيلة الحوادث المغناطيسية التى سيأتى الكلام عليها وكل شعور فى الجماعات وكل عمل يصدر عنها فهو معد إلى حد أن الفرد يضحى مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعات وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة إلاّ نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد فى أفراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابلية التأثر التي هى أصل فى العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة إدراك هذه الظاهرة يلزمنا أن نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلّ عليها علم وظائف الاعضاء منها أنه أصبح من الواضح إمكان وضع الشخص بطرق شتى فى حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذى أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه وعادته وقد دلّ النظر الدقيق فى أحوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لا يلبث أن يصير فى خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل

اليه من الجماعة أو بأسباب أخر مما لم نقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبى اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفئ الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك أيضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الآخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعاً لا قبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة أشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض آخر كما وقع أحياناً من أن لفظاً سعيداً أو خيالا يمثل فى الوقت المناسب أمام الجماعة يسدها عن ارتكاب أفظع الاعمال

والخلاصة ان انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التى أشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن أجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته ، وفيه عنفه وقسوته ؛ وفيه حماسته وشجاعته وفيه منه سهولة التأثر بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه وبالجملة فان الانسان فى الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ما هبت

ذلك هو السر فى أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من أفرادها اذا عرضت عليه وحده وفى أن المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال ما يرفضه كل عضو من أعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة

(كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير أفظع الاعمال حتى أسلموا للاعدام أظهر الناس براءة من الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس فى ذواتهم وحصدا بذلك بعضهم بعضاً ليس هذا هو كل مايفترق به الفرد فى الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقا كلياً بل أنه قبل أن يفقد استقلاله الذاتى تتغير أفكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفاً والمتردد سريع الاعتقاد، والتقى شريراً، والجبان شجاعاً، هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق أنه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً باتاً

نستنتج مما تقدم ان الجماعة دائماً دون الفرد إدراكا ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه أو أردأ على حسب الاحوال والامر فى ذلك راجع الى الكيفية التى تستفز بها وهذا هو الذى أهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح أن الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح أيضاً أنها شجاعة فى أوقات كثيرة أخر تلك حال الجماعات التى يستفزها قوادها الى التقاتل فى نصرة الدين أو تأييد المذهب أو يستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين أو للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ٣٩٧١ نعم ذلك الشجاع لايقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فانا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التى فعلتها الأمم وهي هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك إلا يسيراً

الفصل الثانى

مشاعر الجماعات وأخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب ـ الجماعة ألعوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة ـ البواعث التى تدفع الجماعة إلى الفعل قوية جداً تنمحى أمامها المنفعة الخاصة ـ لاشىء من أفعال الجماعة يصدر عن قصد وروية تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق ـ طاعة الجماعة المؤثرات فى أنها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة ـ علة اجماع أفراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفيه واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة بعض أمثلة للخيالات التى يتأثر بها أفراد الجماعة كلهم ـ فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة ـ فى أن اتفاق العدد العديد من الشهادات من أردا الادلة على اثبات أمر معين ـ ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعه وبساطتها — الجماعة لاتعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف — فى أن مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى أن الجماعة قليلة المسالمة ميالة إلى التسلط والامرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خنوع الجماعة أمام السلطة القوية — فى أن نزوع الجماعة إلى الثورة وقتاً من الاوقات لايمنع من كونها محافظة للغاية — فى أن مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى أخلاق الجماعة — قد تكون أخلاق الجماعة أحط كثيراً من أخلاق أفرادها وقد تكون أرقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها — علة ذلك وأمثلته — قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع أنها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

بعد أن أجملنا القول فى أهم خواص الجماعات ينبغى أن نأتى عليها بالتفصيل كثيراً من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك وملكة النقد والتطرف فى المشاعر وغير ذلك يشاهد

أيضاً فى الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكنى لاأذكر هذه المشابهات إلا عرضاً إذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على أن ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف أحوال النفس عند الاقوام الذين لايزالون على فطرتهم الاولى ثم هو لايقنع من الالمام له بتلك الاحوال إقناعا تاماً

ولنشرع فى شرح كل صفة من الصفات التى توجد فى أغلب الجماعات

١

قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام فى صفات الجماعة الاولية أنها منقادة عادة الى العمل من دون أن تشعر بالدفاع اليه فتأثير المجموع العصبى فى أفعالها أكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطرى وقد تكون الافعال التى تصدر عنها كاملة من حيث التنفيذ الا أن العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعاً للمؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة ألعوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها نعم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ماقد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بان في الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط أعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شئ من ذلك

نتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة أو قاسية عليها مسحة الاقدام أو الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت أنواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائماً لزم أن تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى أنها تنتقل فجأة من أفظع الاعمال الى أكبرها رحمة وكرماً فما أسهل ماتصير الجماعة جلادة ولكن ماأيسر ماتكون ضحية أيضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها تأييد كل عقيدة فى الوجود الا من بطون الجماعات ولسنا في حاجة الى أن نذهب بعيداً فى التاريخ لنعلم ماتقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ أعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو أنه أراد لوجد مائة ألف

نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له (١)

وعلى ذلك لا يوجد من أفعال الجماعة ما هو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها في ذلك مثل أوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتي بأمثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله خصوصاً اذا وقع في يدها فسقط من السلطة العامة ولولا أن مقتضيات الحياة اليومية تفعل فى الامور كمنظم خفى لتعسر جدا البقاء على الدمقراطية (الحكومات النيابية) الا أنه بقدر ما تتطرف الجماعة فى ادارة الشئ تسرع بالعدول عن تلك الارادة فانها لا قدرة لها على الارادة المستمرة كما أنها لا تقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ما تمتاز به الجماعة بل هي مع ذلك كالهمجى لا تطيق وجوده حائل بينهما وما تريد والذى يساعدها على أن لا تعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيها . شعورا بقوة لا حد لها فتصور المستحيل بعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجل منفردا بعجزه عن احراق قصر أو سلب حانوت فان دفعه داقع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى أن يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسيابا لا يثنيه عنه شئ فان كان فى طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام الغضب لقلنا أن الحالة الطبيعية للجماعة التي خولفت فى مقصدها هى الغضب الدائم

وليلاحظ أن خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التى سنأتى عليها فالاولى هى الاساس الذى ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت فى ذلك كثيراً فالفرق جلى بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية سكسونية وأقرب الحوادث فى تاريخنا يوضح ذلك بأجلى

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا التفت حوله القلوب التفافاً دعاه إلى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا أنه عاجلته المنية لجدد زمان نابليون وأتى الفرنساويون تحت إمرته مالم يكن فى الحسبان

بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نبأ برقي عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ماكان أشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ آخر بانكسار تافه لجيوشنا فى (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة فى الحال وفى ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية امام الخرطوم انكساراً أكبر من هذا بكثير فلم ينزعج له الرأى العام الانكليزى إلا قليلا ولم تتزحزح من أجل ذلك وزارة عن مركزها كل الجماعات فى كل الأمم كالنساء وأشدها شبهاً بهن الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز أن يرقى الى الذرى فى وقت قصير لكنه يكون على الدوام مماساً لصخرة زبيان (١) وموقنا انه سيتدهور يوماً من الايام

٢

قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات ان من أخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر معد فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر أو اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والامر انما يتوقف على طبيعة المحرك لا على ما يرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل أو الاحجام عنه كما فى الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكه النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهى لا تعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى

(١) هى صخرة عالية كان يرمى ببعض الجناة من حالقها

سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول (١)

ثم ان سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع الاقاصيص التى تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى خيال الجماعة بلا ابطاء لان الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ماقد يتوارد علينا من الافكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة ان العقل يرشدنا الى ما بين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها أن تصل الى مثل هذا التميز وان كل ما أحدثه خيالها من التشويش تضيفه الى أصل الحادثه فهى لا تفرق بين الشىء وما يرمى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وما وقع تحت الحس أولا

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لان أمزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لان أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل أن يرى جميع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولا (٢) فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية جسما مرئياً

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الالوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى فى رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراجح والذكاء الوافر لانه لا تأثير لتلك الصفة فى موضوعنا إذ العامل والجاهل

---

(١) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون امثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بمالا يتصوره العقل من ذلك أنهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع أن أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة أميال

(٢) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

سواء في عدم القدرة على النظر والتمييز ما داموا فى الجماعة ورب معترض يقول أن تلك سفسطة لان الواقع غير ذلك الا أن بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير انى لا أريد أن أترك القارىء امام قضايا لا دليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين ألوف الحوادث التى يمكن سردها

وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة فى موضوعنا لانها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد صنوفاً وأنواعاً ما بين جاهل غبى وعالم ألمعي رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس فى كتابه الذى ألفه فى مجاري مياه البحر وسبق نشرها فى (المجلة العلمية قال)

كانت المدرعه (لابيل بول) تبحث فى البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كان قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافية وبينما هي سائرة إذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة كل ذلك كان خيالا فقد أنقذ الربان زورقاً صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى فيه من العساكر والضباط أكداساً من الناس يموجون ويمدون أيديهم وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطىء القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد في الجماعة بحال لاتحمل الشك ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهناك رائد يشير الى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضرورى أن تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة أبصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض أفراد تألفت منهم جماعة لها ما لكل الجماعات من الصفات وان كانوا من أكابر العلماء وليست هذه الصفات كل واحد منهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمى وفي الحال تنزوى ملكة التمييز وتنطفىء روح النقد فى كل واحد منهم

ومن الامثلة الغريبة على ذلك ما رواه لنا موسيو (دافي) وهو أحد علماء النفس المحققين وقد نشرته حديثاً مجلة (أعصر العلوم النفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافي) عدداً من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء انكلتره هو المستر (ولاس) وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم أجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الارواح من تجسيم الارواح والكتابة على (الاردواز) وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها أن المشاهدات التي وقعت امامهم لا تنال إلا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات في يده أعرب لهم أن ما كان انما هو شعوذة ما أبسطها قال راوي الحادثة : والذي يوجب الدهش والاستغراب في بحث موسيو (دافي) ليس ابداعه ومهارته في الحركات التي قام بها بل ضعف الشهادات التي كتبها أولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطأ وانه لو صح وصفهم الحوادث التي يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على أن الطريقة التي استنبطها موسيو (دافي) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير في أفكار جماعته ما جعلها ترى ما لم تكن ترى

ذلك هو تأثير المنوم في المنوم دائماً واذا تبين أن هذا التأثير جائز في عقول سامية بعد ان انذرت فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادية

والامثلة التي من هذا القبيل لا تحصى . أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين وانتشالهما من نهر (السين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة أكيدة واتفقت أقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضي التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما أولئك الشهود بالاجماع وبان أنهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الا شبه بعيد جداً والذي وقع هنا هو بذاته ماوقع في الامثلة التي سردناها تخيل الشاهد الاول ان الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك وأكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير في هذه الحوادث وأمثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند أحدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة في ذاكرته ثم يتدرج من ذلك الى القول بما تخيل فتنشأ عدوى التأثر بذلك الخيال الاول فاذا كان أول

من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفى أن يكون فى الجثة التي تعرض عليه علامة أو أثر خاص كالذى قد يكون فى الجسم الذى سبقت له معرفته ليتخيل انها هى ولولم يكن بينهما أدنى شبه حقيقي فى الخلقة اذ ذاك يصير الخيال الأول أشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الادراك وتعطل ملكة التميز تماماً . وحينئذ لايرى الانسان الشيء الذى أمامه نفسه بل الصورة التى خيلت اليه . ومن هنا نفهم السر فى خطأ الامهات اللاتى يخيل اليهن انهن يعرفن جثث أولادهن كما وقع فى الحادثة الآتية وهى وان تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها أخيراً ومنها يدرك القارىء درجة التأثر الذى بينا كيفيته . عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان أشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة أمر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة فى اليوم الثانى وهى تصيح : ربى انه ولدى فلما دخلت عليه أخذت تقلب ثيابه فرأت جرحا فى الجبهة فقالت نعم هذا ولدى فقدته منذ شهر يوليه الماضي. ولقد سرقوه منى ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت) ثم جىء بزوج أختها فما وقع نظره على الجثة الاّ وقال هذا فيليبير . كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى في عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة . أجل كل أولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة أسابيع ان الجثة جثة ولد من أهل مدينة (بوردو) قتل هناك وحملته شركة النقل الى باريس (١)

والذى تجب ملاحظته هو ان هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعني من الاشخاص شديدى التأثر أكثر من غيرهم وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات أمام القضاء . فالواجب أن لايلتفت الى قول الصبي بحال من الاحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لايكذب . ولو أنهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا انه فيه يكذب على الدوام . نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والاّ لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهى الدينار (طره ولاّ ياز) من أن تبنى على شهادة صبي

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول انها أكثر المشاهدات خطأ وانها فى

---

(١) اقرأ جريدة (اكلير) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقبلا نفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا الحذر والحيطة فى الاخذ بشهادة الجماعة . فقد حضر ألوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقى لهذه الحملة نظراً لتناقض أقوال من شهدوها وأثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره أخيرا ان الرواة أخطأوا خطأ فاحشا حتى الآن فى سرد أهم الوقائع فى حرب (سـدام) وهي التى أجمع المئات من الناس على صحتها (١)

هـذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الادلة التى يمكن اقامتها لاثبات أمر من الامور ولكن الذى نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى أنه يجب أن تؤلف كتب المنطق فى هـذا الموضوع من جـديد فالشك كل الشك فى الوقائع التى رواها الجم الغفير والقول بأن الامر شوهد فى الزمن الواحد من ألوف من الشهود هو فى الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق أولئك الشهود عليه

نتج من هذا انه ينبغى النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشـك وقوعها تحت الحواس وأردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فان عمل أي عمل كيفما كان رديئاً أولى من قتل الوقت فى وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ أنه لا ثبات للاقاصيص وان سجلت فى بطون كتب التاريخ

---

(١) أنى أشك كثيراً فى اننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه إنما هو الغالب والمغلوب وأظن أنا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جميع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الاوامر ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل أنتم مخطئون ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل إلا يسير وانما حكى موسيو (داركور) هذه الحكاية ليبرهن على أن الوصول إلى معرفة حقيقة أشهر الحوادث حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

لان خيال الجماعات لا ينفك يغيرها ويحرفها مدي الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذي جاء ذكره فى الانجيل ويهوذا اله الحب الذى ذكره القديس (تيريز) وبدليل ان (بوذا) الذى تعبده الصين لم يبق بينه وبين (بوذا) المعبود اليابان وجه شبه ما

بل أنه لايلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال فى خيال الجماعات فان هذا الانقلاب قد يحصل فى بضع سنين انا شاهدنا قصة أعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات فى أقل من خمسين عاماً . ففي عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقاً للضعفاء ولو صدق الشعراء لبقى ذكره فى أكواخهم (الفقراء) زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا استلب الحكم والحرية وأهلك ثلاثة آلاف ألف من النفوس فى سبيل أطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابوليون . فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذاك الزمان امام هذه الروايات المتناقضة فى وجوه هذا البطل كما يشك بعضهم الآن فى وجود بوذا وقد لا يرون فيه إلا خرافة أو صورة مكبرة من صورة (هرقل) اليونانى غير أنه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع مايسرى الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة إذ يعلمون التاريخ انما يقلد الخرافة والاقاصيص

٣

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة أى سواء كانت طيبة أو رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلو للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطري كما يحصل ذلك أيضاً فى أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التميز الدقيق . ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد فى غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ماينتشر بعامل التأثر والعدوى واجماع الكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد . فهي كالنساء

تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لا يقبل البحث . والرجل منفرد قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً

وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسي الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً فى الشر . وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الاولين . وهي مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى أقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام باكرم الاعمال والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيها . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما أن الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها إلا المشاعر المغالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة . لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض أبداً الى إقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعات من أبطالها الغلو أيضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها أن يفخموا فى ألقابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية وقد شوهد ان الجماعة تطلب من أبطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة وأخلاقاً وفضائل ليست لاحد فى الوجود الحقيقى

والكثير ينسب هذا الميل لاحوال الملاهي الخاصة التي تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد

غير انها قواعد لا تنطبق غالباً على ما يقتضيه الذوق السليم والاحوال المنطقية . والواقع ان فن الخطابة في الجماهير ذو درجة منحطة. الا انه يقتضى صفات مخصوصة وكثير ما يحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب في نجاحها . حتى ان مديرى الملاهى أنفسهم عند ما تقدم اليهم تلك الروايات يشكرون فى نجاحها لانهم لا يقدرون على الحكم عليها الا اذا لبسوا ثوب جماعة متفرجين (١) ولو أنه اتيح لنا التوسع فى هذا البحث لبينا رجحان تأثير الاخلاق القومية فى هذا المقام لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلفت اليها فى بلاد غيرها إلا بقدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لا تحرك فى غير بلدها شجون مسامعيها وهو شرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة أبداً . فقد سبق لى بيان أن مدارك الرجل فى الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيما ذلك هو ما شاهده أيضاً أحد أفاضل القضاة مسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقى أو تنحط فى دائرة المشاعر

---

(١) و بما تقدم ندرك السبب فى ان الرواية الواحدة يرفضها مدير و الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحاً دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كو بيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد أن رفضها مدير و الملاهى الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى . كذلك رواية لامارين دى شارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فانفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فمثلت مائتى مرة فى فرنسا وأكثر من ألف مرة فى بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى فى الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهم كيف جاز أن يصدر عنهم مثل تلك الاحكام أو يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع كبيرة من شأنها أن تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه . هذا موضوع لا يسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بأن يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرسى

٤

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط

قلنا أن الجماعات لا تعرف من المشاعر الا كان متطرفاً بسيطاً وهي لذلك تقبل ما يلقي اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها أو ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على ان هذا هو الشأن فى المعتقدات التى تتحصل من طريق التلقي لا التي تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير فى عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة فى كل ما اعتقدت أنه حق أو باطل وكانت تشعر شعورا تاماً بقوتها كانت أمرتها مساوية لعدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلاف . أما الجماعة فلا تطيق ذلك أبدا وأقل خلاف يأتي به الخطيب الذى يتكلم فى المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والأمرة شائعان فى الجماعات كلها غير أنهما يختلفان فى كل واحدة منها وهنا أيضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وأفكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمرة توجد فى الجماعات اللاتينية إذ بلغت عندها الى حد أنها أماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هي أشد أخلاق الانكليزي السكسوني فلا تهتم الجماعات اللاتينية إلا باستقلال المجموع الذى هي منه . وأخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأي لمعتقد الجماعة عنوة وقسرا ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصر ولم يكن فى قدرتهم أن يعرفوا سواه

الأمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهي تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخضع لها ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلا لانها فى نظرها صورة من صورة الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة

المستبدين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لانه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لايخشون . فأعز الابطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيهاً بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم سلطانه ويخيفهم صولجانه

الجماعة فى استعداد دائم للانتفاض على السلطان إذا ضعف وهي تخني الرأس امام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقة الاجتماع من يظن أن الروح السائدة على الجماعات دائماً هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك إنما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة أن انفجار بركان الثورة منها وصدور أعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهى ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التى هي ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان أشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثورة تغطرساً وتطرفاً لما ألجم جميع الحريات وأثقل بيديه التى من حديد

ومن الصعب ان نفهم التاريخ لاسيما تاريخ ثورة الأمم إذا لم تكن على علم تام بتأصل علم الجماعات الى المحافظة . تبغي الجماعات استبدال أسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظامات من حاجات الامة التى تلقتها عن الآباء والاجداد فهي ترجع اليه على الدوام . أما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة فى الجماعات قوية كما هى عند أهل النشأة الاولى . يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو أن سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت فى الظهور الا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية

٥

أخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا أن نقول بان الجماعات أهل للتجمل باخلاق عالية

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا في أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا أن أعمالها من هذه الجهة كثيرة

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته أن العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لا يجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن أعمالها فاذا هو انخرط فيها أمن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . لا ترى أنه لما لم يجرأ على الشر مع أمثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة الصيد عند المغرمين به فهى تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بانيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس

بقي ان الجماعة كما انها أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار ولكن أنواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هي أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار أو باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالارواح وأمثلة الصليبيين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد أهل لعظائم الاعمال فى باب النزاهة والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التي تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة بذلك اليها أكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الاجر الزهيد

الذي اقتنعت به من قبل لان المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد فى عمل الفرد فليست هي التى ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون أن يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هى التى جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه

حتى الاوغاد كثيراً ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة فى نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الاموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع أنه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر التويلرى فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة أيام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرذولة الاثر نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى أحوال أقل شدة من التي تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بان جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق ورفع الفضائل ومن السذاجة أن نقول بان الجماعة وان تكونت من أفراد منحطي الاخلاق تظهر غالباً بمظهر الكمال هكذا المنغمس فى الموبقات والديون والوغد يزجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب أو سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه فى ندواتهم

ثبت مما تقدم ان الجماعة كما أنها تميل الى الدنايا هى أهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح أن يكون التنزه فى العمل والجلد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمى أو صحيح من الفضائل الأدبية حاز القول بأن للجماعة فى الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء إلا قليلا حقاً هي تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ماضرنا من هذا ونحن لا ينبغي لنا أن نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها إلا النادر لأنها لو تعقلت أحيانا ورجعت إلى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من أركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

الفصل الثالث

أفكار الجماعات وتعلقها وتخيلاتها

(١) أفكار الجماعات — الافكار الاساسية والافكار التبعية — فى اجتماع الافكار المتناقضة — تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات إلى إدراكها — أثر الافكار فى الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات — عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول — درجة تعقل الجماعة منحطة دائماً — لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التى تجمع الجماعات بينها إلا فى الظاهر

(٣) تخيل الجماعات — شدة تخيل الجماعة — إنما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها أصلا — إنما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها — خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما أساس المدنية الحقيقية تخيل الجماعات كان على الدوام قوه رجال السياسة فى الامم — كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير فى تخيل الجماعات

١

أفكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار في تطور الامم وبينا ان كل مدنية تقوم على أفكار أساسية محدودة قلما تتجدد وشرحنا كيف تتمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لا تدخل عليها إلا بالصعوبة وما هى القوة التى تكون لها متى احتلتها ثم أوضحنا كيف أن التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليه لا نعود الى بسط الكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى وانما نوجز القول فى الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التي تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين : الاول الافكار العرضية الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد أومذهب من المذاهب :

والثانى الافكار الاساسية التى تكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتاً مثال ذلك العقائد الدينية فى الماضى والافكار الدمقراطية والاجتماعية فى الزمن الحالى

فالافكار الاساسية أشبه بالماء الذى يجرى الهوينا فى النهر والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التى تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة أهميتها أظهر أمام العين من سير النهر نفسه

وقد أخذت الآن الافكار الأساسية التى عاش بها آباؤنا فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ما كان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من أجل ذلك النظامات التى كانت تقوم عليها وفى كل يوم تظهر أفكار وقتية كثيرة مما ذكرنا إلا أن القليل منها هو الذى ينمو وهو الذى يكون له فى المستقبل تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التى تلقى فى نفوس الجماعات فانها لاتسود ولا تتمكن الا إذا وضعت فى شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لان نحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم فيجوز أن يحل بعضها محل بعض كالزجاجات السحرية التى يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب فى قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التي اجتمعت فى مدركتها فتأتي بأشد الاعمال تناقضاً وتضاربا

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هى تشاهد أيضاً في الافراد لافرق فى ذلك بين من لايزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحى العقل كالذين غلت ثورة الدين فى رؤوسهم بل إني شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيرى الهندستان الذين تربوا فى مدارسنا الاوروبية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو أفكارهم الاجتماعية انوراثية مجموع أفكار غريبة لاعلاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه أو تلك تظهر فى الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على إنه تناقض فى الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيقى لان الافكار الموروثة هى المعول عليه إنما هو الاثر الذى ينتج عنه ألا ترى ان الافكار الدينية في القرون الوسطى

والافكار الديمقراطيه فى القرن الماضى والاجتماعية فى زماننا هـذا ليست رفيعة بمقدار ماقد يظهر فان الفلسفة لاتعتبرها إلا أغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لاحد لاثرها فيما مضى وستكون ولا حد له فيما يأتى ستبقى هى العوامل الاساسية فى حياة الدول والممالك زمناً طويلا

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله فى مقدور الجماعات لايظهر أثره إلاّ اذا دخل فى عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو مايقتضي زمناً طويلا ولذلك وسائل سنأتي على بيانها فى موضع آخر

فلا يتوهمن القارىء ان أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر فى السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غيرانهم لقرب عهدهم بالايمان لايلبثون ان ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم بعد قليل من الايام رأيتهم يسوقون اليك حجتهم الأولى فى ثيابها الأولى بلا تغيير لانهم خاضعون لسلطان أفكار أصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهى وحدها الفعالة فى موجبات أعمالنا وأقوالنا والجماعات لاتشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لاتعارضها قوة وأنتج آثاراً متعددة لابد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التى أدت الى الثورة الفرنساوية فى سيرها نحو نفوس الجماعات مايقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد إن تمكنت منها . هبت أمة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية وإقامة صرح الحريات التى تنتهى اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالى الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ماينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى أى حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما أن وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضى زمناً طويلا كذلك

خروجها منها لهـذا كانت الجماعات دائماً متأخرة فى أفكارها عدة أجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم مافي الافكار السياسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون أن سلطانها لايزال متمكناً لذلك هم مضطرون فى قيادة الأمم الى مراعات مقتضياتها ولما يعتقدوا بشئ من صحتها

٢

تعقل الجماعات

لايمكن القول مطلقاً بان الجماعات لاتتعقل ولا تتأثر بالمعـقول غير أن طبقة الادلة التى تقيمها هى تأييداً لأمر من الأمور أو التى تؤثر عليها منحطة جـداً من الجهة المنطقية فلايصدق عليها إسم الدليل الا من باب التشبيه

وتلك الادلة المنحطة مبينة على قاعدة الاساس كالادلة الراقية الاّ ان رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لاحقيقية فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الادلة فى ذهن الرجل الا سكيماوي الذى عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب فى الفم وكالمتوحش الذى يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل أو كالأجير الذي هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لارابطة بينها الا في الظاهر والانتقال الفجائى من الجزئي الى الكلي ومن التخصيص الى التعميم بلا تروٍ والادلة التى يقدمها اليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لانها هى الادلة التى تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لاتدركها بحال لذلك صح القول بأنها لاتتعقل أو هى تتعقل خطأ وأنها لاتتأثر بالمعقول وكثيراً مايعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذى أحدثته فى سامعيها على مابها من الضعف والركاكة وكأني بالمتعجب وقد نسى ان تلك الخطب إنما صيغت لتؤثر فى الجموع لا ليقرأها العلماء فالخطيب الخبير بأحوال

جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التي تجذبها فاذا نجح فذلك ما أراد ولو ألقيت خطب في عشرين مجلد بعد ذلك ما كان لها من التأثير ماأحدثته تلك الكليمات التى دخلت فى الرؤوس المراد اقناعها

وغني عن البيان ان عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد أى يجعلها غير قادرة على تميز الخطأ من الصواب وان تحكم حكما صحيحاً في أمر ما أما الافكار التى تقبلها هي فهي التى تلقى اليها لاالتى يناقش فيها والذين لافرق بينهم وبين الجماعات فى هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الأفكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتى

٣

تخيل الجماعات

الجماعات كالذوات التي لاتتعقل فى حدة التخيل وفعله الدائم وفى قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان أو واقعة أورزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات أشبه بالمنوم الذى تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر فى ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لاتعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لاتعرف ان شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا فى النفس غالباً

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة أكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر فى حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن أكبر من الواقع والوهمي سائد على الحقيقى

لا تتعقل الجماعات إلاّ بالتخيل ولا تتأثر إلاّ به فالصور هي التى تفزعها وهي التى تجذبها وتكون سبباً لافعالها

لذلك كان التشخيص فى الملاهى من أكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لانه يمثل لها الاشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرت القرون وتعاقبت الدهو

ولم يتغير هذا الخيال إلاّ قليلا ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر فى الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى انه فى عالم الخيال وانه انما ضحك أو بكي متأثراً بحوادث تصورية على انه قد يقع أن الصورة تفعل فى النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل إذ كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب الجرائم الوهمية وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمى عليها من ذلك ما للحقيقى تقريباً وهى ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبني قوة الممالك على تخيل الأمم ولا تنجر الجماعات إلا بالتأثير فى ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد أركان المسيحية والاسلام وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة فى هذه الايام انما هي نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة فى تخيل الجماعات

ذلك هو العلة فى أن جميع أقطاب السياسة فى كل عصر وفى كل أمة حتى أشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم أساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوماً فى أن يحكموا الناس بدونه

قال نابليون فى مجلس شورى الحكومة (اننى أتممت حرب الفندائيين لما تكثلكت واستوليت على مصر إذ استلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لانى قلت بعصمة البابا ولو كنت أحكم شعباً يهودياً لاعدت معبد سليمان) ويظهر لى أنه لم يقم منذ الاسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نسيه فى انتصاراته وخطبه وأحاديثه ولا فى عمل من أعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

أما كيفية التأثير فى تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفى هنا بالاشارة الى

أن ذلك لا يكون أبداً بمخاطبة الادراك والعقل أعنى بطريقة البحث والتقرير بدليل أن (انطوان) لم يهيج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل أثارها لما قرأ وصية المقتولة وأشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو ما يتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مضحوبة إلا بما فيه غرابة أو سر مكنون ، كانتصار باهر ، أو معجزة بالغة ، أو جرم فظيع ، أو أمل دونه الامل فينبغى أن ترمي الاشياء جملة على علاتها وأن لا يوضح كنهها أبداً لان مائة جرم صغير أو مائة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماً واحداً كبيراً أو رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيه أثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه أن القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى أخنت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضع أسابيع لان هذه المقتلة لم تبد امام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصاآت اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثاً واحداً قتل بسببه خمسمائة يدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد فى الطريق العام كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منه تأثراً عظيما

انقطعت أخبار إحدى بواخر الاطلانطيق فظن أنها غرقت وكان لذلك فى خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام ودل الاحصاء الرسمى على غرق ٨٥٠ مركب شراعى و٢٠٣ مركب تجارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الارواح والارزاق ما لا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك البواخر بما فيها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا أن الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها فى تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها أعنى أنه يجب أن يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجماعات عرف كيف يقودها

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ماهو الشعور الدينى ـ الشعور الدينى مستقل عن عبادة الالوهية ـ مميزات الشعور الدينى ـ قوة المعتقدات التى لها صبغة دينية ـ أمثلة شتى ـ فى أن آلهة العامة لم تزل ـ فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة ـ الشكل الدينى للالحاد ـ أهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخة ـ فى أن الاصلاح أو قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هى أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

بينا أن الجماعات لا تتعقل وأنها تقبل الافكار أو ترفضها جملة وأنها لا تطيق المعارضة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات التى تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ما تنتقل من التأثر الى الفعل وانها إذا حسن التأثير فيها تضحى نفوسها فداء للمقصد التى وجهت اليه وكذلك عرفنا أن مشاعرها شديدة متطرفة فالميل عندها لا يلبث أن يتقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات أيام سيادة الاديان أو فى أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتي حصل فى القرن الماضى رأيتها أنها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية . كعبادة ذات يتوهم أنها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التي تظن لها والخضوع الاعمى لاوامرها واستحالة البحث فى تعاليمها والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى سواء كان محله إلهاً لا يرى أو معبوداً من الحجر أو من الشجر أو بطلا من الشجعان أو رأياً سياسياً فكله شعور

تدخل فيه المعجزات وخوارق العادات والجماعات ترى أن فى كل ما خلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذى يعبد إلهاً بل متى أسلم الانسان عقله وإرادته ومافيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى أفكاره واقواله فهو دائن بماتوجه اليه

ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور دينى ويلازمان كل من اعتقد أنه ملك ناصية السعادة فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة وهاتان الصفتان توجدان فى كل جماعة تحركت باحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين فى القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشى والاكراه فى الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الدينى وما البطل الذى تهلل الجماعة له الا إله فى نظرها . هكذا كان نابليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود قيادة النفوس الى حتفها أكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه

إن جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموها الا لانهم تمكنوا من احداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة والطاعة ويهيئه لان يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو (فوستان دى كولنج) حيث قال فى كتابه على بلاد الغلوا الرومانية أن الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى النفوس من الاعجاب بها اعجاباً دينياً قال (ولم يرو لنا التاريخ أن دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والا لتعذر أن نفهم كيف أن ثلاثين كوكبة من جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة) إنما أطاع القوم لان الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له فى كل قرية حتى الحقيرة محراب وقد سرى في المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين مدينة

هيكلا للامبراطور (أوغسطس) بالقوب من مدينة (ليون) وكان لقسوس هذا الهيكل المقام الاول في نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فان الخنوع لا يوجد فى أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة التى هى تعبد الامير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا

ليس لفاتحى النفوس فى هذا الزمان معابد وهياكل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدونها بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن إلهاً لها فليس شيئاً مذكوراً

لا يقولن قائل تلك أوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل فى هذه الايام لان العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور أبداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الالوهية والدين الذي دانت لحكمه ذلك الزمن المديد ولكن معبوداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام وهي لم تفهم للآلهة السابقين من التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هذه الايام والذين نقبوا عن الحركة العمومية المسماة (بولنجية) التى حصلت فى السنين الاخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الديني في الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة في قرية الا وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان في أخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان لارفع في التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرار أنه لابد للجماعات من دين ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الالهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها الا اذا لبثبث ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو أمكن ادخال عدم الاعتقاد في الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كانه معتقد دينى ولصار في الخارج ديناً يتعبد به الناس ومن الامثلة الغريبة على ما نقول ما كان من أمر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ماوقع للرجل العدمي (نهيلست) الذى روى لنا العلامة (روستو فيسكي) قصته قال اشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمي فعمد الى صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين أحد المعابد وحطمها

وأطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لايعتقدون مثل (بوخنر) و (موليشوت) ثم تولاه التقي فأوقد الشموع حول هاتيك الكتب فحل اعتقاده الديني كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ماتبدلت أبداً

وعليه لايدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الاّ اذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي حتماً اليها اعتقاد الجماعات ومن الحوادث الاجتماعية ماينبغي البحث فيه على طريقة علماء النفس لاعلى طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر في الثورة الفرنساوية الاّ نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث في روح الاجتماع فلم يصل الى علل ماأثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من الدماء والتوحش والقسوة فلم ير في إبطال ذلك الزمن الكبير الاّ قطعياً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا مانعاً يصدهم عما كانوا يشتهون

على أنه لاسبيل لادراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الاّ اذا فطن الباحث انها أي الثورة أثر معتقد ديني جديد حل في نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمي و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه أن يدفع الذي حل في قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل مايعترض قيام المعتقد الجديد من دون أن تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هي وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو انهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر في الوجود أمثال الانقلابات التي مرّ ذكرها الا اذا قذفت من جوف الجماعة وليس في استطاعة أكبر المستبدين إثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا ان الملك هو السبب في واقعة صانت بارتلمي كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لان مثل هذه المظاهرات لاتخرج الا من قلب الجماعات ولايقدر أكبر الملوك وأشدهم استبداداً على أكثر من تعجيلها أو تأجيلها فليس الملوك هم الذين أحدثوا واقعة صانت بارتلمي ولا حروب الدين كما ان (روبسبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين أحدثوا (الهول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لاسلطة الملوك

الباب الثانى

أفكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول

العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وافكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات — فى أن ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق — البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وماله من التأثير الاول — فى أنه مستودع ماترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب — اهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية — فى انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة — فى ان الجماعات أشد احتفاظاً للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيىء استقرار المعتقدات ثم زوالها — فى انه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية — فى الخطأ فى تقدير تأثيرها — فى ان تأثيرها ضيعف جداً فى انها آثار لا مؤثرات — فى انه لا يتيسر للامم أن تختار منها ماتظنه الا حسن — فى أن النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة — كيف توجد النظامات — فى أنه لابد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظرياً كجميع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية — خطأ الناس فى أفكارهم الحاليه من حيث تأثير التعليم فى الجماعات — بعض إيضاحات من الاحصاآت — التربية اللاتينية تضعف الاخلاق فى التأثير الذى يمكن ان يكون للتعليم — أمثلة عن أمم مختلفة

فرغنا من البحث في تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث فى كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها فى نفوسها

العوامل التى تولد الآراء والاعتقادات فى الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فأما العوامل البعيدة فهى التى تهيئ الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض أعنى أنها التربة التى تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه فى انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة إلا أن الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغى البحث عنه

وأما العوامل القريبة فهى التى تأتى بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعى الى الفعل أعنى أنها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع مايحتمل من النتائج فهى التى تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الاعمال وهى علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج أو ضد حكومة تهبط الى الدرك الاسفل

تتعاقب هذه العوامل بقسميها فى جميع حوادث التاريخ العظيمة ففى الثورة الفرنساوية وهي أكبر مثال لتلك الحوادث كانت العوامل البعيدة هى كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهى التى هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك في إجراء إصلاحات لا تعد شيئاً كبيراً وهى التى أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ما هو عام بمعنى أنه يؤثر فى معتقدات كل جماعة وفى آرائها وهى الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

وسنبحث فى شأن كل واحد من هذه العوامل

١

الشعب

بدأنا به لان له المقام الاول بين العوامل فله وحده من الاثر ما يربو على آثارها كلها وقد وفينا البحث فيه حقه في كتابنا (النواميس النفسية لتطور الأمم) حتى لم يعد من المفيد أن نرجع اليه هنا اذ بينا هناك ما هو الشعب من حيث

التاريخ وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليها اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدنيته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاماً وخصصنا أربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد ولانه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارئ انه رغم ظواهر الحال التى قد توجب اللبس يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى إلا اذا أصابها التغير والتحول . نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هى فيه وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب أعنى مع سلسلة تلك المؤثرات الوراثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافاً كبيراً وكذا المؤثرات التى تتأثر بها

٢

التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضى الامة فى أفكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص روح الشعب ولها فى القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم ان بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى فى تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ أيضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لان انتشاره لم يعم بدليل ان كثيراً من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون انه يتيسر للأمة أن تنخلع عن ماضيها وتنشئ نفسها من جديد غير مستهدية فى ذلك إلا بنور العقل وحده وفاتهم ان الأمة جسم منظم أوجده الماضى فهى كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور إلا بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليد وهم لا يسهل عليهم أن يغيروا منها سوى الأسماء والاشكال

وليس هـذا مما يوجب الأسف إذ لولا التقاليد ما كان هناك شئ يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة ألا ترى ان هم الناس منذ وجدوا أن يكون لهم شنشنة تقاليد فاذا زال نفعها اجتهدوا فى هدمها والحاصل انه لا مدنية الا بالتقاليد ثم الرقي موقوف على هدمها . والصعوبة فى إيجاد التوازن بين التقلب والبقاء إلا أنها صعوبة كبرى فاذا تأصلت فى الامة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر عليها الانتقال وأصبحت كالامة الصينية غير قادرة على التحسن ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتى الا باحدى نتيجتين فاما أن الحلقات التى تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضي الى التربع في سيادته بدون تغيير ما وإما أن تبقى تلك الحلقات منثورة فهي الفوضى وحليفتها التقهقر والانحطاط

لذلك كان أكبر النعم التى يجب أن تصبو اليها الامة هي المحافظة على النظامات التى ورثتها وأن تسير فى الانتقال بهـا من طور إلى أكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به إلا دولة الرومان فى الازمان الخالية وأمة الانكليز في الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية وأصعبهم مراساً فى معارضة من يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى أن أفضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت أن أشد الثورات عنفاً لا تؤدى إلا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس وإعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على أهل الكثلكة كان يظن أن السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض إلا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ماذكره (فور كروا) أحد رجال الثورة فى تقريره إذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « أن ماهو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الاحد والتردد على الكنائس يدل على أن مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الامة لان السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر — وهو خطأ وقعت أنا فيه أيضاً والقول بامكان ايجاد تعليم عام يكفى لازالة الاوهام الدينية ووجه الخطأ أن في الدين سلواناً للقسم الاول من المساكين

من أجل ذلك يجب أن تترك للامة قسوسها ومعابدها وعباداتها »

هكذا اختفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التى يستهان بها هي التي تسكن المعابد ولا فى القصور يقيم عتاة المستبدين أولئك يبادون فى طرفة عين انما الذى لا قبل لنا به هم أولئك الارباب الذين تمكنوا فى النفوس فتحكموا فى الارواح فلا يزول ملكهم إلا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل

٣

الزمان

أهم العوامل فى المسائل الذى يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك فى المسائل التى يبحث عنها علم الاجسام المنظمة فهو الموجد الحقيقى الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الي مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول إلا بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجوداً تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان فى آراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها له كذلك الاثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التى لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر آراء الجماعات ومعتقداتها أو هى مهيئ التربة التى نبتت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذي يذكر المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيئ بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقاً بل أن لكل واحد منها جذوراً تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا أردت أن تعرف كنهها فارجع الى ماضيها . هى بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هـذا أن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وما علينا إلا أن نتركه يعمل لنرى كل شئ يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التي تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض أركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها ولـكن الزمان سيتكفل وحـده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو (لافيس) : مامن نظام يقوم فى يوم واحد بل لابد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطربا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قرونا قبل أن تهتدى إلى الاصول المنظمة التى تدير بها حكومة البلاد وكم من اضطراب وقع فى أدوار هذا الانتقال »

٤

النظامات السياسية والاجتماعية

لايزال الناس يذهبون إلى النظامات تقوّم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الأمم أثر من آثار إتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن إحداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الأوامر والقوانين ، كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية في بدايتها واليه يذهب الآن أيضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهباً

ذاك وهم تأصل فى الافكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى إقامة الدليل على أن النظامات بنات الافكار والمشاعر والأخلاق وان الافكار والمشاعر والأخلاق لاتتغير بتغيير القوانين وان الأمم لاتختار نظاماتها كما تشتهى كما أنها لاتملك اختيار لون أعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذى هي فيه فليست هي التى تخلق زمنها ولكنها هى التى أوجـدها زمانها ، وليست الأمم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما تشاء أخلاقها وطباعها وكما أن كل نظام لم يستقر إلا بعد قرون عدة كذلك ينبغى لتغييره قرون

عدة ، وليس للنظامات قيمة نوعية فى ذاتها فلا هى حسنة لذاتها ولا هى رديئة لذاتها وان ماصلح منها لأمة فى زمان يجوز أن يكون مضراً في أمة أخرى

لهذا كان من المحقق أن الأمة لاتملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم فى امكانها أن تبدل أسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لكن اللب يبقى كما كان . أما الاسماء فهي عناوين لايلتفت اليها المؤرخ الذى ينقب عن حقائق الاشياء ألا ترى ان أعظم أمة ديمقراطية فى الارض هي الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت امرة حكومة ملكيه وأن أكبر أمة حفها الاستبداد هي الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهورى الذى يحكمها ذلك مايعترف به للانكليز أعظم الجمهوريين تقدماً في الولايات المتحدة واني أذكر للقراء ما جاء في جريدة (فروم) الامريكية ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لا ينبغي ان ينسى الناس حتى الذين هم من أكبر أعداء الشرفاء أن انكلترا هى اول أمم الارض في الديمقراطية أعنى الامة التى بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والذى بلغ أفراداها من الحرية أعلى مقام » وبالجملة قائد الامم أخلاقها وطباعها لا حكوماتها تلك قضية حاولت بيانها في كتابى السابق وأثبتها أوضح دليل وأقوى مثال

لذلك كان من العبث جداً إضاعة الزمن فى خلق نظام جديد من جديد بل لافائدة من شد رحال علم المعانى والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان ، هذا الذى اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذى يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولى) ضمن كلام يجب على أدعياء السياسة فى الامم اللاتينية أن يحفظوه على قلوبهم ؛ بدأ المؤرخ ببيان ما أحدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاماً التى اختنقت بين تقاصات الامم اللاتينية فى أوروبا وأمريكا وأوضح أن الاول لم ينله التغير الا على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمى أبداً ثم قال « القواعد التي سار عليها المائتان وخمسون برلماناً من عهد حنا الى عهد فيكتوريا فى مدلولاتها وقرارتها هي أنها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق بل كان كل همها فى الفائدة ولم ترفع شاداً لشذوذه ولم تأت بجديد إلا اذا تحققت أن حرجاً استولى على النفوس من أجله ولم تجدد

إلا بمقدار ما تفادى من هذا الجرح ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التى اقتضته»

ولو أردنا بيان كون القوانين فى كل أمة منتزعة من روحها وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم أن نأتى على كل قانون ونخوض فى كل نظام، فمثلا يجوز الجدل فلسفياً فى هل حصر السلطة وارجاعها فى النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها أم العكس أولى . لكن إذا رأينا أمة من عناصر مختلفة قضت ألف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة أخرى أن ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت فيه كان لنا أن نقول أن هـذا النظام هو ابن الضرورة التى لا مفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الأمة وأن نرثى لحال أولئك الذين قصرت أحلامهم من السياسيين الذين يذهبون إلى وجوب ابطال ذلك النظام ولو أن الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هى عليه والذى يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة فى أجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها أيام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الالمانية يتبين له أن العناصر المختلفة لا تزال حية فى بلادنا لا تزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيما اعتباريا لا طبيعياً الى أقسام متعددة توصلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانهـا بعضهم ببعض فاذا أمكن اليوم تحقيق ما يصبو اليه أولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسى تاريخنا

نتج مما تقدم أن التأثير الحقيقى فى روح الجماعات لا يكون من طريق النظامات واذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأيناها ترفل فى حلل الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديموقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية لامريكية — ألفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى أذيال التقهقر والفوضى وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لا فى سعادة الاولى ولا فى شقاء

الثانية وبأن الذى يحكم الامم انما هو اخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم . نعم قامت حرب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد الناس أنها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال أن النظامات تؤثر في نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات — والصحيح أن لا تأثير لها البتة لاما قد عرفنا انها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كان الغلبة لها أم عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات أوهام وألفاظ وعلى الاخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التى سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لكل عصر أفكار تسود فيه وان كانت فى الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا فى غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وما هى عليه من القلة

ومن الافكار السائدة فى هذا العصر ان فى التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وأن نتيجته التى لا يشكون فيها هى اصلاحهم بل ايجاد المساواة بينهم ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين وأصبح التعرض له من أصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة فى الزمن السابق

ولكن آراء الديمقراطيين فى هذا الموضوع كما هى فى كثير من الموضوعات الأخر مناقضة كل المناقضة لما أثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فما أثبته الكثيرون من كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصاً (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التى تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره أكبر من نفعه وأيد علماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم أو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان ألد أعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالباً الى مذهبهم ممن حازوا السبق فى المدارس وأشار موسيو (ادلف جيو) وهو أحد

أعاظم القضاة انه يوجد الان في كل أربعة آلاف مجرم ثلاثة آلاف متعلمون وألف واحد أميون وأن عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) أعنى بنسبة (١٣٣) فى المائة ولاحظ أيضاً هو ورفقاؤه أن الجرائم تكثر بين الشبان الذين أبدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعلمها فى المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لايشك فيه انسان أن التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر فى رقي الاخلاق فانه ينمى الكفاآت الفنية ولكن من سوء الحظ أن الامم اللاتينية أسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال) و (فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لاتزال تلك الامم على خطئها فيها وقد شرحت أنا أيضاً فى كتاب لى أصبح قديما ان طريقة التعليم الحالى عندنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى أعداء الهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً في أصحاب أشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

وأول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا ان الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوي الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ ما استطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاستاذية لا يعمل إلا للحفظ وهو في ذلك كله لايدرب مداركه ولا يمرن ملكة الاقدام على العمل من نفسه لان التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفى الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الاقدمين « ان حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو أو مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هي من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بان المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج إلا نقصنا وضعفنا »

ولو ان ضرر هذه التربية كان قاصراً على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على أولئك الاطفال المساكين الذين يحفظون فى المدرسة نص (كلوتير) ومصارعات (نوستيرى) وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من أن يتعلموا أشياء كثيرة أخر نافعة لكن ضررها أكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة

من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لايختار لابنائه عملا إلا فى وظائف الحكومة والمدرسة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وإنما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك الممتعضين المتهيئين دائماً للثورة : وفى أعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الجذرة المغفلة التى تعتقد اعتقاداً دينياً فى قدرة الحكومة وبعد إمكانها وهى مع ذلك لا تنفك عن القدح فيها والتى تخطئ ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت والتى لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه

أما الحكومة التى تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها أن تستصنع منهم إلا القليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هؤلاء . احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة أى من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لا يجد الامع الشفقة نائباً يتولى أعماله فى المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة امام باب كل وظيفة مهما صغرت. ويوجد الآن فى مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون ألفاً لاعمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختارون منهم قليلا فعدد الغضبان كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لان اكتساب معارف لايجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من أنجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على أمته (١)

---

(١) على ان هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الامة كذلك الحال فى الهند فمن يوم ان فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون فى انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم

ومن الواضح أن الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما التجارب وهى آخر مرب للامم ستظهر لنا خطأنا فهي التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فني عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء في الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما أوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

كتب أحد كبار المفكرين موسيو (تاين) صفحات فى هذا الموضوع ما أجلها وسأنقل للقراء طرفاً عنها فيما يلى فابان باوضح برهان أن تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز أو الامريكان فى الوقت الحاضر أو ما يقرب من ذلك ثم أتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية وأعرب بافصح لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لاعد لها مما يرقي ملكات العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار التربية التى تعودناها ولولم تخرج الاعطلة ممتعضين فهل لهاهذا الاثر ؟ لا والاسف يملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هي عدة الحياة ولا نجاح الا بها وليس شيء من ذلك فى الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لافائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

أما كون التعليم الفنى يربى العقل بما لاينال من التربية العلمية الجارية فذلك ماشرحه مسيو (تاين) شرحاً وافياً إذ قال « لاتتولد الافكار الا فى مولدها الطبيعي الاعتيادى والذى ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التى يتأثر

(يابوس) إذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا أعداء الداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط أخلاق جميع اليابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد أفضت الكلام عن ذلك فى كتاب (تمدن الهند) ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

بها الشاب كل يوم في المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامي ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئاً كان الصنع أو حسناً غالى الثمن أو رخيصاً . هذه هى الملتقطات الصغيرة التى تتناولها العين والأذن أو الايدي أو الشم أيضاً التقاطاً غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزاً تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلا أو آجلا الى تركيب جديد أو تبسيط مركب أو طريقة اقتصاد أو تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذى هو أحوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع سنين أو ثمان فى المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات ما كان أنفعها وأكبر أهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك أولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان أو الثلثين انهم لاينجحون وأخرج من بين الناجحين نصفهم أو ثلثيهم وهم الذين أبلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون ، كلفوهم بمالا يطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد أو أمام لوحة أن يكونوا مدى ساعتين أشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ماعلم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك أو مايقرب منه مدة ساعتين ولكنهم لايبقون كذلك بعد مضي شهر من الزمان فلا يقدرون أن يجوزوا الامتحان مرة أخرى لأن معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لايكسبون منها جديداً لأن الملكات القت سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذ ذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام وهو فى الغالب الرجل الذى قدفرغ منه هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على أن يدور فى دائرة معينة وأن يستقر على الدور ان فى الدائرة عينها وينزوي الى العمل الضيق الذى أقام فيه وصار يؤديه بانتظام ، ولا شيء بعد ذلك . هذه هي الثمرة فى المتوسط ولا شك فى أن الوارد لايساوي المنصرف . أما فى انكلترا وفى أمريكا كما كان فى

فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ماصرف أوتربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان أن ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة مالنا ، وأن التعليم عندهم لايتلقى من الكتاب بل من الشيء نفسه فالمهندس مثلا يتكون فى المصنع لافى المدرسة وهو مايسمح لكل واحد أن يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا أورئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند هذا القدر وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديمقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقاً على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أوالمتممة للعشرين مدة سويعات معدودة قال موسيو (تاين) :

« يدخل التلميذ والعود أخضر فى المستشفى أو المعدن أو المصنع أو مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامي أو المبتدىء في الحرفة عندنا ويكون قد تلقى أولا بعض دروس عامة مختصرة أوجدت فيه محيطاً تعشش فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها فى أوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها ، هـذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ماتسمح به ملكات التلميذ وتسير في طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من أن ينتزع من نفسه كل ماملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين وأحيانا قبل ذلك اذ ساعدته كفاءته ومادته منفذا نافعاً بل مبدئاً مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو أيضاً المحرك لها

أما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الاخرى وصارت تقرب من طريقة أهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التى تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير

النظرى فى أدوار التعليم الثلاثة : الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطي الاجازة أو الامتياز لا انتظاراً لشئ آخر وقد أعدوا لذلك أردأ الوسائل فاخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد واجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لابد للطالب من القيام بها اذا اكتحل ولا ناظرين الى الوجوه الحقيقى الذي أضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعه أو إخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى الذى يلزم المرء فيه أن يأخذ أهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائماً على قدميه . مدارسنا لا تكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم مايجب أن يقتنى . لا تكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الارادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من أن تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى أول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية أمره كلما مد يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زماناً طويلا وقد يصير كالأعرج ويبقى كذلك دائماً . تجربة قاسية ذات خطر تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الأسى (١)

---

(١) راجع تاين (النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩٤) وهذه الصفحات هى آخرما كتب تاين تقريباً وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف أرى أساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمناً خارج فرنسا لايدركونها على أن التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الامة ومن سوء الحظ انه لايكاد أحد عندنا يدرك أن طريقة التعليم التى نجرى عليها هى من أشد عوامل الانحطاط العاجل وأنها لاترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

ومما يفيد القراء أن يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتعلقة بالتربية فى أمريكا التى ذكرها موسيو (بول بورجيه) فى كتاب (بحر آخر) فقد لاحظ هو

كأني بالقراء يظنون انا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لـكن ما زلنا فيـه لانه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التى تتولد الآن فى الجماعات ان نعرف كيف هيئت الارض التى تنبت فيها فالتعليم الذى يعطى الأمـة هو المرآة التى يري فيهـا مصيرها يوماً من الايام والذى يبذل منه الآن لشباننا يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن أو تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب أن نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا فى التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعـد ان كانت لاهية بنفسها أو لاتشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من الممتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المتهوسون أهل التخيلات أو المتفيهقون تجار الكلام فالآن نحن نعلم أن الاشتراكيين والفوضويين يربون فى المدارس وأن فيها تحضر أوقات انحطاط الأمم اللاتينية عما قريب

ايضا أن تربيتنا لاتخرج إلا أواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام على العمل من أنفسهم ولا إرادة فيهـم أو فوضويين قال (وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط أخلاقه وعجزه أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب) ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع اتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك تتبين الفرق بين الامم الديموقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا ماجاء على ألسنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

الفصل الثانى

العوامل القريبة فى أفكار الجماعات

---

(١) الصور والالفاظ والجمل — فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية — فى ان قوة الألفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقى — فى ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — أمثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الألفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق أسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت أسماؤها الأولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات — اختلاف معانى الألفاظ الواحدة باختلاف الأمم — اختلاف معنى ديموقراطية فى اوروبا وفى أمريكا

(٢) فى الأوهام — فى أهمية الاوهام — فى ان الأوهام موجودة فى أساس مدنية — ضرورة الأوهام فى الاجتماع — فى أن الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) التجارب يجوز ان تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاماً ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ما تقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) العقل — عدم تأثيره فى الجماعات — فى أنه لا يمكن التأثير فى الجماعات إلا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق فى التاريخ — فى الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيىء نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا أن نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى فى الفصل الآتى كيف نستعمل هذه العوامل لنظهر آثارها كلها

وقد بحثنا فى القسم الاول من هذا الكتاب فى مشاعر الجماعات وأفكارها ومداركها ، ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أى العوامل يفعل فى تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها فى شكل صور ترتسم فى الخيال ولما كانت مناشىء المؤثرات

مختلفة كانت العوامل التى لها قوة التأثير فى نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهذا ينبغى الكلام فى كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان أحوال الجماعات تشبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القدماء فاما أن نتمكن من حل طلاسمها وإما أن نستسلم لها فتأكلنا

١

الصور والالفاظ والجمل

تبين عند البحث فى تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست الصور ممكنة في كل وقت لكن من السهل استحضارها فى الذهن بالحذق فى استعمال الالفاظ والجمل ومتى كان المستعمل لها بارعاً فلها قوة السحر عند معتقديه فى الزمن السابق فهى التى تثير فى نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب وهي التى تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لامكن أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوبس القديم

السر فى تأثير الالفاظ للصور التى تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقة بل الغالب أن أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً مثال ذلك كلمات ديموقراطية ، اشتراكية ، مساواة حرية ، وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج فى تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم أن لها سلطاناً ينساب فى النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تتمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل فى تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية . ألفاظ وجمل تثير فى النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام إيهاما يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لها فرائص العابد إذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن معانيها كانت مختلفة باختلاف الاجيال والامم وان اتحدت صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على

الأثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ما هو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ما تكون له تلك القوة أو لا تم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماماً وتصير أصواتاً فارغة تنحصر فائدتها فى إعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذا حفظ فى صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها ان يجتاز الحياة بها من دون احتياج الى إجهاد نفسه بالفكر فى أمر من أمور الدنيا

من تأمل فى لغة من اللغات وجد أن الالفاظ التى تتركب منها لا تتغير مع الزمان إلا ببطء عظيم انما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التي تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى أن ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصاً اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنساوية كلمة يونانية أو لاتينية أو سنسيكريتية أو أردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين أو ثلاثة فذلك عبارة عن احلال الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لامم لا نسبة بين حياتها وحياتنا . نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان ألفاظاً وظنوا أنهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم انما أثبتوا لالفاظ قديمة معانى ما كانت لها أبداً فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء ألسنا نعلم أن كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه أفراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات أشراف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديما عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان أكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند أهل أتينا أو أهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية لانها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء إذ كان لهم من بينهم حلفاء على الدوام وروما هى التى أوجدت وطن

الغلوا بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها . مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن فى نفوس الامراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن إذ كانوا يحاربون الاجنبي على ملكهم كما فعل البرنس كوندية ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لان نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التى هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما أكثر الالفاظ التى تغير معناها تغيراً كلياً من جيل إلى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الا مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه أجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا أن معانى الالفاظ غير ثابتة وأنها عرضية أى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فاذا أردنا أن نؤثر فى الجماعات لزمنا أن نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لامعناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها فى الفكر والمعقول

ومن أجل هـذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان أخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التي تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم أن يسارعوا إلى تغيير تلك الالفاظ من دون أن يتعرضوا لتغيير المسميات لان هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظ توكفيل منـذ بعيد وكان نقاداً أن حيل أعمال القنصلية والامبراطورية (في فرنسا) كان إلباس القسم الاكبر من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ أعنى الاعتياض من ألفاظ أصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بالفاظ لاتثير فيها هذا التأثر لحدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية والعوبة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن أهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التي صارت الجماعات لاتطيق سماع أسمائها المعروفة بأسماء مقبولة أو على الاقل لامقبولة ولا مكروهة لان قوة الالفاظ

شديدة حتى انه يكفى تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات باسماء مختارة لترضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) أن اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان فى زمانهما عند الناس (من اقامة استبداد أحق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك)

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم إلى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافاً كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لاتتكلم مع ذلك بلغة واحدة

رأينا فى الأمثلة التى أتينا عليها أن الزمان هو أهم العوامل فى تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعاني في الزمن الواحد اختلافاً كلياً عند الأمم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر إدراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الامم فلا أطيل الكلام فيه ولكنى أشير إلى أن اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الأمم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديمقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالها الآن

الأفكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافاً بينا عند الجنسين اللاتينى والانكليزي السكسونى فمعنى الديمقراطية عند الاول انزواء إرادة الفرد وإقدامه على العمل من نفسه أمام ارادة المجموع وهمته والمجموع تشخصه الحكومة (١)

فالحكومة هى المكلفة بادارة كل شىء وحصر كل شىء واحتكار كل شيء وصنع كل شىء وهي التى تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلا استثناء من أحرار إلى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزى السكسونى وبالاخص الامريكى من كلمة ديمقراطية نمو إرادة الفرد وإقدامه الذاتى الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ماأمكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشىء حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد فى بلد جمود إرادة الفرد وسكون إقدامه الذاتى واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد في بلد أخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول (٢)

---

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التى بيدها زمام الامر فى البلاد

(٢) شرحت القول باسهاب فى كتابى (ناموس تطور الامم النفسى) على الفرق بين

٢

الاوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الاوهام فاقامت لموجديها أكثر التماثيل والهياكل والمعابد وما من حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض إلا وكانت تلك الملوك الهائلة فى طليعة جيوشها أريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هي التى شيدت هياكل الكلدان ومصر وأقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الاوروبية من الرأس الى القدم منذ مائة عام وخاتمتها مطبوع فى جبين كل ما أبرزه العقل من المستحدثات الفنية أو السياسية أو الاجتماعية يهدمها الانسان أحياناً ولكنه يعانى فى ذلك هول الانقلاب العنيس ثم هو محكوم عليه دائماً أن يقيمها من جديد فلولا هي ما خرج من بربرته الاولى ولولا هى لراح مسرعاً يتخبط فى أودية الخشونة والتوحش نعم هى خيالات باطلة وهي من نبات الاحلام ولكنها هى التى ساقت الامم لى ايجاد ما فى الفنون من رفيع وجميل وما فى الحضارة من عظيم وجليل

قال (دانيال روزيار) ولو أبيد ما فى دور العاديات أو ما فى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والآثار الفخمة التى أبدعتها الفنون والاديان ما بقى فى العالم شيء مما ولدته الاحلام وما كانت الآلهة والابطال ولا الشعراء الا التحدث فى النفوس شيئاً من الرجال وبعضاً من الخيال إذلا حياة للناس بغير الامل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاماً ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه أصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قروناً وأجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا أيضاً منابع

الديمقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (پول بورجيه) فى كتابه (بحر آخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته

الرجاء واغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها واجماعات لا غنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء . إن الحقيقة لم تكن أبداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه الباطل على الدوام . واذا بحثت عن السبب فى قوة مذهب الاشتراكية فى عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لا يزال حياً فى العقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم أنوار العلم التى تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كافياً يجرئهم على وعد الناس بالسعادة فى الحياة والآن أصبح هذا الوهم سائداً فوق أطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترضى الامرة عليها لمن أضلها والويل منها لمن هداها

٣

التجارب

التجارب هي على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة فى نفوس الجماعات . وإزالة الاوهام التى عظم ضررها انما ينبغى أن تكون عامة ما أمكن وان تكرر إذ تجارب جيل لا تؤثر غالباً في الذى يليه ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان أنه يجب تكرار التجارب من جيل الى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل فى نفوس الجماعة

ومن المحقق أن مؤرخى العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذى تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها فى زمن من الازمان

وأكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار الفتن والقلاقل فى أوربا كلها مدى عشرين

عاماً لنعرف أن الامة لا تخلق خلقاً جديداً بارشاد العقل وحده وقمنا بتجربتين منهكتين فى خمسين عاماً لنثبت من طريق التجربة أن القياصرة تكلف الامم التى تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما أرادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة أجنبية على البلاد والثانية أدت الى سلخ أقليم عنها وضرورة إيجاد جيش مستديم مع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من عهد قريب وهى واقعة لا محالة يوماً من الايام وبالجملة كان لابد من تلك الحرب الهائلة التى استنزفت ثروتنا لكي تقلع الأمة كلها عن الوهم بان جيش الالمان العرمرم لم يكن إلا عبارة عن حرس ملى (١) لا خوف منه كما كانوا يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً

ولو أردنا أن نبرهن للامم التي تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الاجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً ومن السهل الاكثار من الامثلة على ما تقدم

٤

العقل

لولا الحاجة الى بيان ان لا تأثير للعقل فى الجماعات ما احتجنا الى ذكره بين

---

(١) كان راى العامة فى هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين فى ذهنها لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى فى ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم فى الذهن على الصورة التى عرفها من قبل ولا يتوجس الناس منه خيفة وكان خطأ الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول مايأتى ضمن خطابه الذى القاه على مجلس النواب فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٦٧ ونقله موسيو أو ليفيه فى كتاب نشره حديثاً وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائما افكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر ابداً قال ناقلا « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الاحرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لاأهمية له » وهى رواية تبلغ صحتها مابلغه رأى ذلك السياسى فى ضعف مستقبل السكك الحديدية .

العوامل التى تؤثر فيها لانا قدمنا ان البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات وانها لا تعقل إلا بالمشابهات الرديئة ولهذا فان الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها (١) فلأجل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص امامها صوراً مؤثرة وينبغى ان يكون مقتدراً على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى وان يتفرس فى كل لحظة أثر كلامه فى نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التى تلجيء الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل فى نفس السامع هى التى تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لان الخطيب يتبع فى هذه الحالة سلسلة أفكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه أقل تأثير عندهم أما المناطقة فلأنهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه فى مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقى أعنى الجمع بين الشيء ونظيره فى الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوم أناساً يسوقون احد قواد الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزمجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان يأخذ رسم أحد المعاقل ليبيعه للروسيانيين فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيباً ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت أنتظر منه ان يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله أن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت — كنت شاباً فى ذلك الحين — اذ سمعته على نقيض ماظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل أخذاً لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الامة (١) تتم التحقيق الذى بدأتموه وسنزجه فى السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة إلا والفريق فى داره ولو انه خاطبهم بما جال بخاطرى من الادلة المنطقية التى اعتقدتها دامغة لمزقوه اربا

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين

عنه وهـذا اللزوم يقتضي التسليم حتى من المادة لو أن فيها قدرة على أن تتمثل النظائر » وهو مسلم غير أنه لا فرق بين الجماعة والمادة فى عدم إدراك النظائر بل فى عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجه العقلية والدليل المنطقى وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى اقناعهم

على أنه لاداعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا أن نذكركم من القرون أمسكت الاوهام الدينية بالعقول على مابها من مخالفة قواعـد المنطق الابتدائية وان أكبر الناس عقلا وأسماهم فكراً أتوا تحت حكمها ألفى عام وبقى الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث فى صحتها ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثيرين فى القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وأرشده الدليل إلى ما كان فى الاوهام التي استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوما فى صحة إساءة الشـيطان أو في ضرورة إحراق الساحرين

رب سائل أمـا يوجب الاسف أن العقل ليس هو الذى يهـدى الجموع على الدوام نحن لايسعنا أن نقول به بل نرى أنه لو كان الهدى للعقل ماانتفعت الانسانية فى سبل المدنية والحضارة بالهمة التى أوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لناغنى عن الاوهام لانها نبات الغرائز

كل شعب يحمل فى كيانه العـقلى نواميس مآله فى الوجود والظاهر أنه يسير محكوما بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لامقدور له فيها حتى فى نزعاته التى يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر أحياناً ان الأمم مدفوعة بقوى خفية مثل التى تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها أو التي تدور بهـا (ذوات الاذناب) فى دائرتها

على أنه لايسعنا أن نعرف إلا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنهـا فى حركة تطور الامة العمومية لافي الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور إذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر أن التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة فلقد كان ممالا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو (غاليليه) (١)

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنه ١٦٤٢

يصير مدة ألفى عام كأله جلت قدرته يؤسس باسمه أهم أركان المدنيات فى الدنيا وكان مما لايصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التى عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر . كذلك كان مما لايتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير فى أوروبا التى لها قدم راسخة فى التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه أن يتداخل كثيراً فى حكم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فى غالب الاحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وإنكار الذات والايمان بالدين وحب المجد والوطن وهى الصفات التى كانت ولا تزال أقوى دعائم المدنيات كلها

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم في الاقناع

(١) قواد الجماعات — حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه — روح القواد — القواد هم الذين يمكنهم وحدهم إيجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات — استبداد القواد نتيجة لازمة — انواع القواد — شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد — التوكيد والتكرار والعدوى — تأثير كل واحد من هذه العوامل — كيف ترتقى العدوى فى الأمة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا — فى أن الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاماً

(٣) النفوذ — تعريف النفوذ وانواعه — النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى أمثلة متنوعة — كيف يزول النفوذ

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقي علينا أن نذكر كيفية استعمال هذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها استعمالاً مفيداً

١

قواد الجماعات

مااجتمع عددمن الاحياء سواء كان من الحيوان أو من بني الانسان إلا جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب إلا أن له بذلك شأناً كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول إرادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لأن تصير طائفة خاصة

والعادة أن القائد يكون قبل ذلك مقوداً . أعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لايرى معه إلا ما كان منها

وان كل ماخالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) أسكرته أفكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها

ليس القواد غالباً من أهل الرأي والحصافة بل هم من أهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر . على أنه ليس في قدرتهم أن يكونوا بصراء . لان التأمل يؤدى غالباً الى الشك ثم الى السكون وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون لاينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ماقصدوا بالغاً منه الخطل ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم توهساً وعناداً . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون فى الغالب أجراً على عملهم الا أن يكونوا من ضحاياه . تزيد شدة اعتقادهم فى قوة تأثير أقوالهم . والجموع تصغي دائماً الى قول ذى الارادة القوية الذي يعرف كيف يتسلط عليها . ومتى صار الناس جماعة فقدوا ارادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شيء منها

وجد القواد فى الأمم على الدوام . غير انهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا في قومه . بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لايسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً الا أنه سريع الزوال . أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و (لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذى اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة في النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لافرق بين أن يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً . ولا أن يكون محله عملا أو انساناً أو رأيا بهذا كان تأثيرهم عظيما جداً . لان الايمان أكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله انه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمناً زادت

قوته عشر أمثالها . والذى قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الا الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا أهل البأس على الاخص هم الذين أقاموا الاديان الكبر التي سادت على الدنيا واختطوا الممالك الشاسعة التي امتدت فوق السطحين

غير أن الأمثلة التي ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف في قهوة أطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون أن يدرك معانيها . ولكنه يؤكد ان فى العمل بها تحقيق جميع الاماني والآمال

لا يلبث الانسان أن يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك أمر واقع فى جميع الطبقات أرقاها وأدناها فاما أفراد طبقة العامة فان الواحد منهم متي خرج عن حرفته أو مهنته لا تجد عنده فكراً واضحاً فى أمر من الامور وكلهم كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما أمكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التى تصنع لقرائها أفكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير إلا أن البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القواد أن تكون مستبدة على أن استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً أن فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة وأصعب مراساً مع تجرد أولئك القواد من كل شئ يستندون عليه فى سلطتهم . فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات ويفضونها بميقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هى الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة أكثر مما أطاعت حكوماتها وذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يولى الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفككة الاجزاء ولا قدرة فيها فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير فى باريس رقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته انما الحاجة التى يشتد شعور الجماعة بها هى الخضوع لا الحرية

وقد بلغ منها الظمأ الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية . وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول أصحاب حدة ونزق وشجاعة واقدام . وهم على الاخص نافعون في تنفيذ ما دبر أو كسب الجموع بلا خلاف من الخطر وفي جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناى) و (مورات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدى) في عصرنا هذا فانه كان رجلا هجوماً لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولى) القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدهش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لا يستطيعون التصرف فى أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين فى تصريف غيرهم أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم إلا اذا كانوا أنفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام والمتولت عليهم يد أو فكر من الافكار وساروا فى طريق مرسوم من قبل . أما الفريق الثانى من القواد وهم ذوو الارادة الثابتة فان تأثيرهم أعظم بكثير وان كانوا أقل ظهوراً فى الشكل وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و (كريستوف كولومبو) و (دولسبس) وسواء كان قواد هذا الفريق من الاذكياء أو الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التى اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شئ الا أن الناس لا يدركون دائماً ما عسى أن يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذى يكون من ورائها هو أنه لا شئ أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال وأقرب الامثال على ما تأتى به الارادة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذي فصل الدينين . وأنجز عملا قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعد ذلك فى عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قد أدركته وكل شيء ينطفئ أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ما تأتي به الارادة وحدها فما عليه الا أن يذكر العقاب التى ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كراليس) وهو من شهود الحال فى أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذى خلد التاريخ ذكره فقال « كان — يعنى دلسبس — يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى . فحكى لنا ما لاقي من الصعاب التى ذللها . وكيف جعل المستحيل ممكناً وروي المقاومات التى صادفته والتحزبات التى اعترضته واليأس الذى كان استولى على قلبه والخيبة التى كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهى تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوى أشد الجميع معارضة فى البدء بالعمل . حتى أنه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء الفرات ولا تنسى أن ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذى الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علماً بان الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويجددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف أو الخسوف »

أن الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك هى التي كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ

٢

وسائل القواد فى التأثير

التوكيد والتكرار والعدوى

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة في الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة والأمثولة أشد ذلك تأثيراً فى نفوسها إلا أنه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثير وان يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتي الكلام فيه

لكن إذا كان الغرض بث أفكار في عقولها أو معتقدات في نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما تقدم وأخص ما يستعمله القواد منها ثلاث : التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطيء إلا أنه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمناً طويلا

فاما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر في نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ما له مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التأكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسي أو أهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها

الا أن قيمة التوكيد هي بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك . وأظن أن نابليون هو القائل بان أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشيء رسخ في الاذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة

للتكرار تأثير في عقول المستنيرين وتأثير أكبر في عقول الجماعات من باب أولى . والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هو السر في تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهي باعتقاد صحة الخبر . ويقرأ ألف مرة ان دقيق فلان شفى أعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة أن أصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم في الصحف أن زيداً من الانذال وعمراً من الفضلاء فينتهي باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً في جريدة أخرى ما يخالفه فانه لا يفل التكرار إلا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر وأجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكري يتلوه ذلك المؤثر العظيم أي العدوى كما وقع ذلك في بعض المشروعات المالية الشهيرة التي تمكن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لان للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى في الجماعات تماثل في قوتها عدوى المكروبات

وذلك أمر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله الخيل كلها . وتجزع الشاة أو تضطرب فى حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان فى الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب فى سرعة انزجاع الكل لفزع الواحد بينهم . حتى ان اختلال القوى العقلية معد وكثيرماهم أطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعاً من الجنون تنتقل عداوه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب فى العدوى وجود الافراد الكثيرين فى مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التى تتحد لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدة التى مركزها . ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت فى باريس وما عتمت ان امتدت الى قسم كبير من أوروبا وهزت أركان كثير من الممالك

قالوا ان لحب التقليد تأثيراً كبيراً فى الناس وليس التقليد الا أثر بسيطاً من العدوى. وقد بينت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة فى غير هذا الكتاب فاكتفى بايراد ماقتله اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هي التي تجعل للبدىء (المودة) تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لايقلد سواء كان ذلك فى الافكار أو الآراء أو الادبيات أو اللباس لان الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر أناس قليل عددهم يستحدثون البدىء فيقلدهم أبناء عصرهم فيها وانما يشترط أن لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما ومن هنا قل تأثير الاوربى فى الشرق مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه أهل كل عصر فى أمة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على أفكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على أنهم أبناء عصر واحد . ولا يلزم أن يطول

المحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذي يصبو اليه والعمل الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها » (١)

ويبلغ تأثير العدوى إلى حد أنه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هى التى تنفر من الشيء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان أشد الناس بغضاً له كما وقع فى نانهاوزر) (٢)

والمدوى هى الاصل فى انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففي الحمارة تتولد أفكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى . وقليلا ما تولدت أفكار الجماعات في كل عصر من غير هذا الطريق .وقد أصاب (رنان)(٣) إذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين « بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من حمارة إلى أخرى » وقال فولتير (٤) قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « أنها استمرت لايدين بها إلا أخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة أن العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها إلى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لانه بدأ يمتد بين الذين يخال أنهم سيكونون أول ضحاياه لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف أمامها أثر المنافع الذاتية

هذا هو السبب فى أن الفكر إذا انتشر بين طبقات العامة لا بد له من الانتشار أيضاً بين طبقات الامة الي أرفعها وان كان فاسداً بعيداً عن الصواب . وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا وذلك من أغرب المشاهدات الاجتماعية لان الافكار العامة لا تأتيهم دائماً الا من أفكار عالية تختلف عنها أثرها فى البيئة التى ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعة بعد ان تتمكن منهم ويشوهونها

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجنر نفر الناس منها اولا ثم اعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى اواخر القرن الماضى وكان قسيساً فى مبدأ امره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى حياة (المسيح)

(٤) أشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

ثم يؤلفون فئة تزيد في تغييرها. ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير. ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تصعد إلى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية. وعلى هذا يكون العقل هو الذي يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد. فقد تفني عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير تراباً ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل أن تسود الافكار التى أوجدوها

٣

النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت في الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لا تقف امامها قوة أخرى. وكل سلطة سادت فى الوجود سواء كانت سلطة الافكار أو الرجال فهو السبب فى قيامها وسياداتها. والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة. ولذلك لم يكن من السهل تعريفها. وقد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب أو الرهبة. وربما كان الاثنان أصلا له في أحوال كثيرة. إلا أنه قد يوجد بدونهما مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم. ودليل ذلك أن أكثر من نشعر بنفوذه فيناهم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا. كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير فى النفوس وإن كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون فى معابد الهند التى تحت سطح الارض.

يمكن أن يقال أن النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولى بها على العقول. وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراماً ولا يمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور. إلا انه لابد أن يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوماً مغناطيسياً. والنفوذ أعظم مقوم لكل سيادة في العالم إذ لولا هو ماساد الآلهة والملوك والنساء

ثم أن النفوذ أنواع يمكن حصرها فى قسمين . النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى . فالاول هو الذى يرجع لاسم صاحبه أوثروته أو شهرته . وقديكون منفصلا عن النفوذ الشخصى . وأما النفوذ الشخصى فهو أمر ذاتي قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه وقد يكون وحده

وأكثر النوعين شيوعاً هو النفوذ المكتسب أو العرضى فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فللجندى فى لباسه وللقاضى فى زيه الرسمى نفوذ ما ارتديا لباسهما ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة (١) ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكى كيفما اشتدجفاؤه يشعر بشئ من الاضطراب إذا رأى أميراً أو عظيما من الشرفاء ويكفي أن يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذى أشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذى يكون للافكار أو الادبيات أو الفنيات وغير ذلك وهو في غالب الاحوال ناشىء من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الآداب والفنون إلا تكرار رأي سبق ولم يعارضه أحد فيؤول الامر إلى أن كل واحد يكرر ماقرأ فى المدرسة ووجدت بذلك أسماء وأشياء لايجرأ أحد على الحديث فيها فما لاشبهة فيه أن مطالعة

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير فى الجماعات فى كل بلد حتى التى بلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات — وانى انقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بيانا لنفوذ بعض العظماء فى انكلتره قال « لاحظت مراراً أن اجتماع احد الحائزين لقب (بير) مع أكبرهم عقلا وتمييزاً يحدث فى نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص — فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه فهم يحيونه قبل أن يروه — فاذا التقوا به تلقوا منه كل شىء فرحين — تحمر وجوههم سروراً بمقدمه — فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين — ويظهر فى العينين بريق غير معهود — اللوردية فى دمهم كالرقص عند الاندلسى والموسيقى عند الالمانى والثورة عند الفرنساوى — شهوتهم فى الخيل وشكسبير أقل من شهوتهم فى الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر — كتاب تلك الرتبة عندهم فى رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

« هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً إلا أنه لايجرأ أحد على القول به و« البارتينون » أصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض ولا فائدة منها إلا أن نفوذه لايزال قوياً حتى أنهم لايبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوفاً بابهته وفخامته فمن خواص النفوذ أن لايجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وأن يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائماً والافراد غالباً إلى آراء حاضرة فى جميع المباحث وانتشار هذه الآراء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب أو الخطأ بل مرجعه مالها من النفوذ

ننتقل الآن إلى النفوذ الشخصي وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وإن ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم أفكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم . وأولئك يطيعون أمرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضة . وان كان فى استطاعته افتراسه بالسهولة لو أراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك ونابليون . وهو السبب فى تمكنهم فانما تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطاً لادخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان أولئك العظماء ذوى قوة اخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هي السبب فى شهرتهم فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . إلا انه كان له شيء منه يوم لم يكن من السلطة ولم يكن معروفاً لدى أحد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لايزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد ايتاليا فوجد نفسه بين لواآت عتاة أشداء وكانوا قد أجمعوا أمرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم إياه دخيلا بينهم . ولكنه ماعتم أن أخذ بزمامهم من أول التقائه بهم بلا كلام ولا إشارة ولا وعيد بل باول نظرة من ذلك الذى قدر له أن يكون من العظماء واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء (أو جيرو) وهو جندى عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاده فخور بشجاعته ، وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم أن سمع به وعرف أوصافه فسماه صنيعة (باراس) ولواء الشارع ونعته بالدب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير وبالخيال فلما اكتملوا أدخلوهم غرفة الاستقبال فابطأ نابليون في الخروج اليهم وبعد زمن ابان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه وأخبرهم بنياته وأنفذ اليهم أوامره وأشار اليهم بالانصراف أما (أوجيرو) فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه إلا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه أقر مع زميله (مسينا) أن هذا القائد الصغير أوقع الرعب فى قلبه وأنه حائر فى التأثير الذى أخذ به أول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما أوتى من المجد وأصبح فى أعين الجماعات مساويا للآلهة عند المتعبدين . اتفق أن القائد (فاندام) وكان جندياً ثورياً خشن الطباع جاف الاخلاق أكثر من زميله (أوجيرو) . قصد ذات يوم تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد (أورنانو) فقال الاول للثانى وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون « أيها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان فى نفسى تأثيراً لست أدرك كنهه حتى انك لترانى مع كونى لا أخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذنى الرعشة كالطفل الصغير ويخيل الىَّ أنه قادر على إدخالى فى سم الخياط واحراقي بالنار » وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير فى جميع من يقترب منه (١)

---

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه و يعلم أنه يزيد فيه بمعاملته أكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على انه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين أزعجوا فى أوروبا — وروايات عصره مشحونة بالامثلة فى هذا الموضوع فمنها أنه انتهز ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية فارتعد المشتوم — فاقترب نابليون وقال له « أثاب اليك رشدك أيها الابله الكبير » وكان بونيو واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على أذن الكبير

هذا التأثير الذى فاق حد الاعجاب يبين لنا السبب في الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « الب » وكيف انه افتتح ثانية بلا امهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وامامه جيوش تلك الأمة المنظمة وكان الناس يظنون أنها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين أرسلوا للقبض عليه أن يفعلوا فلن تكن إلا نظرة منه أخضعتهم وهم صامتون وكتب القائد (ولسلى) فى ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد الفرنساوية وليس معه إلا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة الب الصغيرة التى كانت كل ما يقدر أن يتسلط عليه فما لبث بضعة أسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملكها الشرعى وذلك من غير أن يريق قطرة دم لواحد من أهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل في الدنيا وأعجب منه ما كان له من التأثير فى حلفائه أثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العمومية فانه كان يلجئهم إلى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير

مات نابليون ولكن نفوذه بقى حياً أو صار ينمو وتأثيره هذا هو الذى حمل الناس على الاعتراف بابن أخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وها نحن أولاء اليوم نشهد ظهور أقاصيصه من جديد وذلك برهان على أن خياله لا يزال قوياً فى النفوس . أسىء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم ألوفاً ألوفاً وانزل على البلاد غارة وغارة انك فى حل مما تصنع ما دمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ما تحمى به ذاك النفوذ

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثال عزيز المثال والحق انى اخترته عمداً لأبين للقراء كيف ثبتت أركان الديانات الكبر وقامت

قال (بونيو) « علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف » هذه الحوادث وأمثالها تدل على ما يفعله النفوذ فى النفوس إذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار — وتبين لدرجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم أنهم لا يصلحون إلا حشواً للمدافع

المذاهب العظام . وأنشئت الممالك الواسعة إذ لولا تأثير النفوذ فى الجماعات ما كنا لذلك مدركين.

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصى والفخار العسكرى والرهبة الدينية دون سواها . بل يجوز أن يتسبب عن أمر أصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً ولنا من القرن الحاضر أمثلة كثيرة أكبرها مثال سيتوارثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل وهو الذى نراه فى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه البسيط كما غير طرق المواصلات التجارية بين الأمم يوم ان فصل بين القارتين . وقد كان السبب فى نجاحه ما أوتيه من قوة الارادة . ولا تنسى تأثيره الذى كان ينفذه الى نفوس مخالطيه . كان الناس كلهم أضداداً له فاذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين . واذا خاطبهم أسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور أحبة صادقين. ولقد انفرد الانكليز بالشدة فى معارضته فلما ظهر فى بلادهم صاروا له أعواناً مخلصين . ثم مرّ بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحاً بمقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين . قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وصخور ورمال فقهر الكل وسخروه فلما فاز أصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام وأراد أن يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناما وشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد أقبلت واليقين لا يزحزح الجبال إلا اذا لم تتصل بذورتها السماء . هنالك استعصى الجبل . وحم القضاء . ونزلت الكارثة فهدمت صرح مجد أقامه ذلك البطل العظيم إن فى حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذ وكيف يموت . بلغ الرجل فى المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال . وأنزله قضاة أمته الى أخس درجات المجرمين فلما مات مرت جنازته كأنها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون . وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقعوا لاعاظم الرجال(١)

الامثلة التى قدمناها تعد أقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا أردت ان تعرف ماهى النفوذ مفصلا وجب أن تضع تلك الامثلة فى أعلى السلم ثم تتدرج من منشئي الديانات ومقيمى الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذى يحاول أن يبهر جاره بثوب جديد أو وسام

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة « نوى فراى بريسه » النمساوية بمدينة

و بين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها فى جميع أركان المدنية من علوم وفنون وآداب . وترى النفوذ أول مؤثر فى تحصيل الاعتقاد . فالناس يقلدون ذا النفوذ عمداً أو بمحض الفطرة سواء كان انساناً أو رأياً أو شيئاً آخر

« فينا » مقالة فى مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك ننقلها للقراء قالت « لم يبق فى موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١)» الذى يثير الحزن والاسى بعد الحكم على « فرديناند دولسبس » لانه إذا كان فرديناند دولسبس نصاباً فكل امل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من أهل العصور الاولى لتوجه أهل زمانه بأبهى تاج من المجد والفخار ولسقوه الرحيق فى حجرة آلهتهم التى كانوا يعبدون لانه غير وجه الارض — وأتى من الاعمال ما يدعو إلى تحسين الخلق فى الوجود

« خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه فى التاريخ بحكمه على دولسبس لان الامم لاتنفك تسأل عن اسم الذى اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره والبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجداً وفخاراً لمعاصريه

(ألا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين فى مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد — إلا أن الامم فى حاجة الى رجال ذوى عزم واقدام يثقون بانفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين إلا أنه لاحذر لنابغ إذ ولو كان حذراً ما أمكنه أن يرقى هامة العصر الذى هو فيه

« ذاق فرديناند دولبس حلاوة المجد وغضاضة الجذل . السويس وبناما . وهنا يحق للنفس أن تغضب من آداب الفوز والانتصار فلما أفلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهانى . واليوم لما ادركه الفشل امام صخور (كورديليير) كان نصباً حقيراً . ان هذه إلا حرب تقوم بين الطبقات فى الامم يثيرها حقد الموظفين الذين ألفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقاماً ممن يصبوا الى المجد والمعالى ولقد يحار مشرعو هدى العصور امام تلك الافكار العالية التى يولدها النبغاء . والعامة فى ذلك أقل فهماً وأدنى ادراكا . لكن من السهل على الافوكاتو العمومى اقامة البرهان على ان ستانلى من القتلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولام المخطىء الهبل

---

(١) هو الذى اكتشف امريكا

ويتولد فى أهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون ويكون التقليد فى الغالب فطريا لذلك يبلغ حد الكمال والاتقان ومن ذلك أن مصورى هذه الايام أخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التى تمثل أناساً من أهل الفطرة الاولى وهم لايشعرون من أين جاءهم هذا الميل ويظنون أنهم هم الذين أوجدوه لانفسهم وفاتهم أنه صنع أحد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر إلى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها فى فن التصوير ومنهم من قلدوا أحد المشاهير فجعلوا يكثرون فى مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع أنهم لايرون هذا اللون منتشراً فى الطبيعة أكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاماً والواقع أنهم متأثرون بفعل أستاذ من عظماء أساتذة الفن كانت له فى ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريباً . وأمثال المصورين كثيرة فى جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم أن النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فمتى نجح الآمر فى أمره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول . والدليل على أن النجاح أقوى عامل فى تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك فالناس يهللون فى المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرن منه فى الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى فى صاحبه اذا تولته الخيبة فتراه الجماعة من أندادها فتميل إلى الانتقام منه جزاء ذلها أمام سلطانه الذى لم تعد تعترف له بشىء منه . هكذا كان نفوذ روبسبير شديداً يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه فلما ضاعت منه بعض الاصوات وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته وشيعته الجماعة إلى المشنقة وهى تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه لكن ذلك لايتم إلا بالتدريج وهذه الوسيلة هى أضمن الوسائل لاضاعته وما من إله أو انسان دام له النفوذ زمنا طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه انما تعجب الجماعات بمن يترفع عن مقامها

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

(١) فى المعتقدات الثابتة — فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — فى أن هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية — صعوبة إزالتها — فى أن التعصب أحد فضائل الامم من بعض الوجوه — فى أن بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) — فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — فى أن الافكار غير الثابتة — التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — فى أن تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى اقل من قرن واحد — فى حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه التغير فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الواحد وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى أن افكار الجماعات تميل إلى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى أن تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية أى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام ، فمن الاولى ما هو ثابت أولا يتغير إلا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا وبين الطوفان ، ومنها ماهو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غير المتأمل

وكذلك الحال فى الخواص الادبية فمن أخلاق الشعب ما هو ثابت لا يغيره كرور الايام ومنها ما هو متقلب يتغير . ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وأفكارها يرى دائماً فى أخلاقها أصلا ثابتاً ترسب فوقه أفكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الاول المعتقدات الدائمة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية الامة كلها كالافكار التى سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وأفكار الاصلاح (البروتستانتية) والجنسية والافكار الديموقراطية والاجتماعية في أيامنا والقسم الثانى يشمل الافكار الوقتية المغيرة وهي مشتقة فى الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب فى الجيل الواحد كالنظريات التى تسترشد بها الفنون والادب فى أوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة الانشاء(١) ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية وهكذا. وتلك الافكار كلها سطحية سريعة التغير كالبدىء (المودة) فمثلها كمثل الامواج الصغيرة التى تظهر وتختفى من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جداً . وقيامها وسقوطها فى كل أمة ذات تاريخ يمثلان أعظم دور فى حياتها . ولا قوام للمدنية بدونها

ومن السهل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسها كما أنه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً إلا بالثورات العنيفة بل أن الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها أثر المعتقد فى النفوس . فهي تصلح لكسح تلك البقية التى تكاد تكون في حكم المهمل لولا أن سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تجديد اليوم الذى يندك فيه أحد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتقاد لان كل اعتقاد عام يكاد يكون أمراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء إلا بشرط عدم البحث فيه

غير أن النظامات التى أسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تتحلل إلا ببطء وان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن أن كل أمة أصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لا بد لها عاجلا من تغيير جميع أركان حضارتها فهي تغير وتبدل فيها

---

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائما بما جرى عليه السلف فى فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

حتى تهتدى الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش فى فوضى حتى تعثر عليه فالمعتقدات العامة هى دعائم الحضارة التي لا بد منها وهى التى ترسم للافكار طريقها الذى تسير فيه وهي التى توحى بالايمان وتفرض الواجبات

أدركت الامم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى أن يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها . عند الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا أجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم فى دفاعها المستميت عن متعقداتها . إذ الحقيقة أن هذا التعصب هو أرقى الفضائل فى حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما أحرق أهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد فى النفوس ومامات الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسبى ملء قلوبهم الا لانهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لاجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة إلا للدفاع عنها . وما مات الملايين فى ساحة الوغى إلا بسببها ، وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمناً طويلا وكيفما كان خطأ من الجهة الفسلسفة فانه يتسلط على أكبر ذوى الألباب بدليل أن الأمم الأوروباوية دانت لأقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرناً والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج(١) كاقاصيص (مولوخ) (٢) هكذا بقى العالم قروناً وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بان إلهاً ذاق ابنه عذاب الهون انتقاماً ممن عصاه من خلقه . ولم

---

(١) أقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اما عملا فقد أوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف وأحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) الهعبده الكلدانيون واهل قرطاجة وكانوا يحرقون الاطفال قربانا له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائما ليتلقاها (م)

يجل بخاطر أعظم الرجال عقلا وادراكا مثل (غاليله) و (نيوتن) و (لايبنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هذه الافكار ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها منفوس ولكنه يبرهن أيضاً على أن العقل محدود بحدود مخجلة

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها . هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها فترى أهل العزائم لا يفكرون إلا فى تحقيقها وواضعى القوانين إلا فى الاخذ بها والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب إلا فى تمثيلها على صور شتى

وقد يتولد عن العقيدة العامة أفكار وقتية ثانوية إلا أنها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين في القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها

من هذا يتبين أن الفضل للعقائد العامة فى إحاطة أهل كل عصر بتقاليد وأفكار وعادات تقيدوا بها رصاروا متشابهين والذى يهدى الناس فى سيرهم انما هي الافكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على أعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لا نفكر فى الخلاص منها . إذ الاستبداد الحقيقى هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذي لا يتمكن المرء من محاربته . فلقد كان (تيمير) و (جنكيزخان) و (نابليون) جبارين مستبدين ولكن استئثار « موسى » و « بوذا » و « عيسي » و « محمد » صلى الله عليه وسلم و « لوتر » وهم فى القبور أشد وأبقى . إن مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولكن ماذا ينفع الكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس . قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحي وكانت الجماعات فى ظواهر الأمر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التى أوجدتها الأمم لنفسها

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفى . واذا كانت

مذاهب الاشتراكيين فى العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هـذا هو الذى يكون سبباً فى عدم استيلائها على نفوس الجماعات وانما السبب فى انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى أن السعادة التى وعدت بها الديانات لاتتحقق إلا فى الدار الباقية فلم يكن لاحد أن يماري فى تحقيقها وأما السعادة التى وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب أن تتحقق فى الحياة الدنيا ومتى شرع في ذلك بان أن الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة إن تم لها الظفر إلا الى اليوم الذى يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب فى أن هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التى سبقته ولـكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ

٢

فيما للجماعات من الافـكار غير الثابتة

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التى شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافـكار والآراء التى تتجدد وتزول دائماً ، فمنها مايدوم يوماً واحداً ، وأهمهـا لايدوم أكثر من الجيل الذى نشأ فيه . وقد قدمنا أن التغيير الذي يطرأ على هذه الافـكار صورى أكثر مما هو حقيقى فى الغالب ، وانها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذى توجد فيه ، ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسى فأوضحنا أن أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمي جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع إلى طبيعة شعبنا النفسية أو الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود أسماء هذه النظامات وانها عند أمم أخرى ودلالتها على شىء آخر وبأن وضع الاسماء للافـكار والباس الشىء ثوباً يريه في صورة غيره لايغير من حقيقة ذلك الشىء . كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بأدبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم (١)

(١) شارات القوة والعظمه عند الرومانيين

وأرديتهم واجتهدوا فى تقليدهم فى نظاماتهم وأحوالهم . ومع هـذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخية ووظيفة الحكيم هي استخلاص مابقي من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وأن يميز في معمعة الافكار المتغيرة مايرجع منها إلى روح الشعب وعقائده العامة

واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفى جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء ، والظاهر أن التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة أو الدين أو الفنون أو الأدب ، لانا إذا نظرنا فى تاريخنا إلى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ أعنى ثلاثين سـنة وهو عمر جيل واحد ورأينا الجماعات التى كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكيـة كما كانت هـذا في السياسة وأما في الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهية ثم رجعت إلى الكثلكة الضيقة إلى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وأنكروا الله والسلطان أمسوا خداماً خاضعين لنابوليون وأصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم فى احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما أكثر الانقلابات التى طرأت على أفكار الجماعات فى السبعين سنة التالية فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابليون وكانوا فى أول القرن أعداء ماكرين وأغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

وأسرع من ذلك تقلب الافكار فى الادب والفنون والفلسفة فكنا لانتقيد بقواعد اللغة . وكنا طبيعيين وكنا صوفيين وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى وكان الناس يتغنون باسم هذا الكاتب أو ذاك المصور فى المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه

وإذا دققنا البحث فى هـذه التقلبات التى يخال انها حقيقية متأصلة فى النفس رأينا إن ما كان منهـا مخالفاً للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم إلا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها فمن المعلوم أنه

يستحيل دوام الافكار التى لا رابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير بأقل تغيير فى البيئة التى وجدت فيها . ومما يدل أيضاً على عدم بقائها أنها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذى يتكون أكداساً على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا

ولقد كثرت فى أيامنا هذه أفكار الجماعات التى لا بقاء لها ولذلك ثلاثة أسباب

الاول : ان الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها . وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لا رابطة بينها هى والماضى ولا يرجى بقاؤها فى المستقبل

السبب الثانى : أن قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا أن الجماعات كثيرة التقلب فى أفكارها فالنتيجة أنها أصبحت أكثر حرية فى إظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث : هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الافكار المتناقضة التى تعرضها على الجماعات . فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهى تموت قبل أن تنتشر انتشاراً يثبتها ويجلعها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة فى تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهى ضعف الحكومات عن قيادة الرأى العام

كان زمام الرأى فى الزمن السابق ماهو فى يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم ، وأما الجرائد فان وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأى وأما السياسيون فانهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

نتج من هذا أن رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة وقد وصل الآن الى الجاء الأمم لعقد المحالفات كما وقع أخيراً فى المحالفة

الروسية التى كانت حركة الرأى العام مصدرها الوحيد ومن أعجب ما يشاهد الآن استسلام الباباوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث (١) ليصرحوا بافكارهم ويعرضوا آراءهم فى أمر من الامور الى حكم الجمهور ، قالوا فيما مضى ان السياسة ليست من الامور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى أنه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان أن نزعات الجماعات تقودها كل يوم أكثر من الذى قبله والجماعات لا تعرف العقل ولا تندفع إلا بالمشاعر

وأما الجرائد فبعد ان كانت تقود الرأي العام كالحكومات اضطرت الى التسليم أمام سلطان الجماعات . نعم للجرائد أثر شديد فى الناس لكن ذلك سببه أنها صارت مرآة لآرائهم ومتغيرة بتغير أفكارهم المستمر ، أصبحت الجرائد رسل أخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى أو تقرير مذهب بل هى تسير خلف أهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم وإلا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل) و (الديبا) و (السيكل) وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على أنها إن وجدت ما كان لتلك الآراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً يقرؤنه أو نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى ونصيحة توجه اليهم إذ يظنون أن وراءها طمعاً في ربح أوسعياً لمنفعة خاصة ، بل ان أهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً ، أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد أو إبداء الاراء الشخصية فجعلت تقلل منه فى عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين أو ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهي

---

(١) يشير الى ما الفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء ونشر احاديثهم فى الكتب والصحف

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأى العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى انما هو أثر ذلك فى الناس وما ذلك يهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له

ينتج عن فقدان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشىء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً . وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع . أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شىء أو هم كثير التقلب

التطور الذى تم من هذه الجهة فى الخمسة والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكياً أفكار وآراء ثابتة فى التاريخ وفى العلوم وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهورياً أفكار وآراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد أن الرجل ليس متولداً من الفرد والثانى يعتقد الضد تماماً . الاول يرى من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة أن يغضب وينفر والثانى أن يعجب ويبالغ فى التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه إلا مقروناً بالخشوع والاجلال مثل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعاً بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و (أوغسطس) و (ناپوليون) وعم هذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون نفسها «١»)

---

(١) يوجد فى هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملكة النقد الناشىء عن طريقة التربية فى المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسة (السربون) المذكورة قال « ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من أكبر اعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ أوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم » وقال عن (روبسبيير) إن استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان أشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار » (صفحة ٩١ و٢٢٠

ليس لفكر ولا لرأى فى هـذه الايام وقع فى النفوس لـكثرة المناظر والتحليل مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيراً للبقية والذي ينفر به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئاً

على أنه ينبغي أن لا تحزن من انتشار الافـكار نعم أنه لاشبهة فى أنه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق أن تأثير أهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم أكبر جداً من تأثير أهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشىء لـكن يذهب عنا أنه اذا تمـكن رأى واحد من النفوس والجماعات على ما هى عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث أهله أن يصيروا مستبدين استبداداً يذل له كل ما فى الوجود ويغلب باب حرية الافـكار وحرية النقد زمناً طويلا . لا يقال أن من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهي هوائية سريعة الغضب والانفعال فاذا قدر لحضارة أن تقع فى يدها أصبحت هدفاً للطوارىء والمصادفات وقصر بذلك أجلها وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فانما يكون ذلك من شدة تقلبات الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول

أقسام الجماعات

أقسام الجماعات العامة — أنواعها

١ — الجماعات المختلفة العناصر — أوجه اختلافها — تأثير الشعوب — فى ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية — فى ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

٢ — الجماعات المؤتلفة العناصر — أنواعها — الاقتاء والطوائف والطبقات

بعد أن بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغى أن نبين الصفات الخاصة التى تنفرد بها المجامع عن بعضها إذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية الى ذلك

ولنبدأ بقول موجز فى تقسيم الجماعات

فأولها الجمع مطلقاً وأدنى مراتبه ما كان مؤلفاً من أفراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم إلا ارادة رئيسهم بقدر ما له من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفى الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها الجموع التى احتفتها أحوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت بأن صارت شعباً واحداً . ولهذه الجموع فى بعض الاحيان الصفات الخاصة بالجماعات إلا أن هذه الصفات الخاصة تكون دائماً متأثرة بصفات الشعب العامة

فاذا اجتمعت فى هذه المجامع بقسميها العوامل التى ذكرناها فى هذا الكتاب صارت جماعات منظمة أو نفسية . وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية :

أولاً الجماعات المختلفة العناصر وفيها
(١) الجماعات التى لا اسم لها «كجماعات الطريق العام»
(٢) الجماعات التى لها اسم خاص «كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا)

ثانياً الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها
(١) الأفناء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا)
(٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا)
(٣) الطبقات (كجموع الاواسط وجموع أهل الريف وهكذا)

واليك قولاً موجزاً فى بيان مميزات كل نوع من هذه الانواع

القسم الأول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هى التى شرحنا صفاتها فى هذا الكتاب وهى تتألف من أفراد أيا كانوا وكيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهم . ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت أحوالهم النفسية الاجتماعية مع أحوالهم النفسية الفردية اختلافاً عظيماً وان العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لانه لا تأثير له فى الجماعات وان الذى يؤثر فيها إنما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزاً تاماً وهو الشعب وقد ذكرناه مراراً وقلنا انه أعظم المؤثرات التى تنبعث عنها أفعال الناس ونقول إن له كذلك أثراً فى صفات الجماعة فالجماعة المؤلفة من أفراد أيا كانوا وهم انكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التى تتألف من أفراد أيا كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلا

أشد مظاهر الافتراق الناشئ عن الوراثة العقلية فى كيفية الشعور والنظر فى الامور يعرض فجأة متى اجتمع أفراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب — وذلك نادر — كيفما اتحدت فى الظاهر المنافع التى اجتمعوا لاجلها . حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نواباً عن جميع العمال فى كل أمة فأدى ذلك

دائماً إلى خلف عنيف والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ماتريد ، تستوى في ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهي تميل بطبعها إلى حصر السلطة وجمعها فى يد واحدة وإلى من يجمع تلك السلطة فى يده وأما الجماعة الانكليزية أو الامريكية فانها لاتعرف الحكومة ولاتستعين إلا بهمة الافراد الذاتية . أول ماتهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة وأول ماتهتم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديمقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائماً روح الجماعة فهي لها كالدائرة المنيعة التى تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغي أن نقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة فى الجماعة ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هي الهمجية وتسلطها رجوع الهمجية . ولايخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التي لايحكمها العقل الا اذا كانت له روح قوية شديدة . وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التى لا اسم لها كجماعات الشوارع ثم الجماعات التى لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية . والذى يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً فى انفعالهما هو أن الاولى لاتشعر بتبعة مانتج عن أعمالها بخلاف الثانية فانها تقدر تبعة عملها كما ينبغى

القسم الثاني

الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤتلفة العناصر إلى افناء وطوائف وطبقات فالافناء أول المراتب وهى تتألف من أفراد مختلفين فى التربية والحرفة والبيئة أحيانا ولا جامعة تجمعهم إلا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية

والطوائف أرقاها وهى تتألف من أفراد متحدين فى الحرفة فهم متشابهون فى التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين

والطبقات هى التي أفرادها من مناشىء مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه فى حالة المعيشة والتربية كطبقة الاواسط فى الأمة وطبقة الزراع وهكذا

ولما كان بحثي فى هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن نيتى أن أفرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتابا خاصاً فلا أطيل فى بيان صفات هذه الاخيرة واختم الكلام على الاولى بذكر بعض أنواعها مثالا للبقية

الفصل الثانى

الجماعات الجارمة

يجوز أن تكون الجماعة جارمة شرعا لكنها لا تعد كذلك فلسفياً — فى أن أفعال الجماعة لاشعورية محضة — أمثلة شتى — روح جماعة شهر ستمبر — أفكارها وشعورها وقسوتها وأخلاقها

بعد أن يمضى زمن على الجماعة وهى فى هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الالقاء فى نفسها ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفياً كيفما كان الحال وانما جريت فى الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لانى أقرأه فى بعض كتب علماء النفس الحديثة نعم أن بعض أعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هي لكن كما يعتبر عمل النمر الذى يلتهم الهندى بعد أن يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه

تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم وهـذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية ، وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجلى بيان

فمن أمثلة ذلك قتل موسيو (لونى) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار اليه وصات الضربات تتساقط عليه من كل جانب ، وهـذا يشير بشنقه وذاك بضرب عنقه وثالث بربطه فى ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحداً من الجماعة . إذ ذاك اقتراح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة . قال راوى الواقعة « وكان المضروب طبلخاً خالياً من العمل ويقرب من أن يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر ماذا يجرى هناك . فلما سمع الاجماع ظن أن العمل مما تقتضى به الوطنية ، وانه ينال وساماً اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفاً ضرب به عنق المـدير وكان غير

مشحوذ فلم يقطع فألقاه وأخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض أسود واستعان بخبرته فى تقطيع اللحوم فساعده الحظ وأتم عمله »

ومن هـذا المثال يظهر لك كيف تصدر أفعال الجماعة فقد انقادت هنا الى تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل أنه أتى عملا شريفاً اعتقاداً مكنه من نفسه ذلك الاجماع وقد يكون مثل هـذا العمل آثما بحكم القانون لـكنه ليس كذلك فى حكم علم النفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهى بعينها الصـفات التى شاهدناها فى غيرها ، من قابلية التأثر ، والتصديق والتقلب والتطرف فى المشاعر طيبة كانت أو رديئة ، والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك

وستظهر لنا هذه الصفات كلها فى إحدى الجماعات التى تركت في تاريخنا أقبح ذكرى محزنة وهي جماعة شهر سبتمبر (١) ويبز هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى) شبه عظيما ، وانى أنقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذى استخلصها من المفكرات التى كتبت أيام حدوثها

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون أو غـيره (٢) فالذي يهمنا هو أنه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التى وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمـائة سفاك كلهم أشتات فهى تمثل الجماعـة المختلفة العناصر أكبر تمثيل إذ لم يكن فيها من الغوغاء إلا نفر يـير والباقون من أصحاب الحوانيت والصناع فى كل حرفة وكل مهنة من حذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذى وقع عليهم ، كالظاهي الذي مر ذكره ، وكلهم يعتقد أنه قائم بواجب وطني وقد قاموا بعملين ، فـكانوا قضاة وجلادين ، ولـكنهم لم يروا أنفسهم من الجناة

---

(١) هى كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية فى باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح أصله طبيب انقلب صحافياً دمويا صرفاً فـكان يطلب اعدام مائتين وسبعين ألف نفس مدعياً أن فى ذلك فداء الوطن

(٢) هو (مارات) على ما ذكر فى معاجم التاريخ كما تقدم

أبداً ، بل وفر فى نفوسهم أنه واجب من أكبر الواجبات ، وأول ما بدأوا به أن شكلوا محكمة هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عداتها ، ذلك أن المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً فقررت أولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون فى نظر كل وطني جناة بمقتضى صناعتهم ، وان يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص ، وأما الباقون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم أو شهرتهم . فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت ما تنفذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناها من قبل ، والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً فى المجامع إلا أن الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن فى الجماعات ، ولذلك كان يوجد فى تلك الجماعات من عاطفة التأثر ما يبلغ فى شدته تلك القسوة الهائلة

كان لاولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك أن أحدهم علم أن المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع فى قتل السجان لولا شفاعة السجناء وكانوا إذا برأت المحكمة التى أقاموها واحداً من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقاً طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره أكداساً ، كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياهم ، يغنون ويرقصون ، ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهى فرحة قتل الشرفاء ، وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن أحد الموكلين بالتقتيل شكا من أن النساء لا يشاهدن القتل لبعدهن عن مكانه وأن القليل من الناس هو الذي ينال حظ ضرب الشرفاء فصوب الجميع شكواه وقرروا أن يمشى المنهمون الهوينا بين صفين من القتالين وأمروا هؤلاء أن لا يضربوهم إلا بظاهر السيوف حتى يطول أمد العذاب ، وكان فريق يأتى بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون أجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم

ومع ذلك كنت تشاهد الأمانة لاتزال ملازمة للقاتلين فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون أن يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وخليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التى انفردت بها روح الجماعات تظهر في أفعالهم من ذلك

أنهم لما لما فرغوا من قتل الالف والمائتين أو الالف وخمسمائة العدو للامة لاحظ بعضهم أن السجون الاخر تضم أناساً لا فائدة منهم وان الاولى اعدامهم . فسارت الجماعة الى الموافقة على هذا الرأي وكان من فى السجون الاخر أناساً من الشحاذين والهمل (المتشردين) والاولاد فرأت جماعة أنه لا بد من وجود أعداء للامة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسم اذ قال بعضهم « لا بد أنها متغيظة من وجودها فى السجن ولو تمكنت لوضعت النار فى باريس ولا بد أن تكون قد قالت ذلك . بل قالته . إذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاماً ما بين الثانية عشر والثامنة عشر وقالوا فى قتلهم أنهم إذا عاشوا لا يبعد أن يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم

ولما أتم القاتلون عملهم بعد أن زاولوه مدة أسبوع كامل فكروا في الراحة واعتقدوا أنهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من أجلها . ورغبوا الى حكومة ذلك الزمن أن تكافئهم ومنهم من طالب وساماً

وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ أمثلة كثيرة كالتى قدمناها وسنرى كثيراً غيرها مادام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف

الفصل الثالث

العدول المحلفون أمام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول ـ فى أن الاحصاء يدل على انه لاتلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم ـ كيف يتأثر العدول ـ ضعف تأثير الدليل العقلى ـ طريقة الاقناع التى استعملها أشهر المحامين ـ الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها أو التى يقسون من أجلها ـ فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع أنواع العدول فى هذا الكتاب رأينا أن نقتصر على أهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم أحسن مثال يمثل به للجماعات المختلفة العناصر التي لها اسم خاص . واذا بحثنا عن الصفات التى لها نجد قابلية التأثر . وسيادة المشاعر الغريزية . وضعف التأثر بالمعقول . والانصياع الى القواد وهكذا . وسنبين اثناء بحثنا في هذه الجماعات بعض الغلطات التى يرتكبها من لم يكن خبيراً بعلم روح الجماعات لما فى ذلك من الفائدة

نجد أولا فى العدول المحلفين من حيث القرارات التى يصدرونها مثالا حسناً يبين أن تأثير الاذكياء الذين يوجدون فى جماعتهم ضعيف لما تقدم من أنه لاتأثير للعقل المستنير في رأى الجماعة اذا كان فى موضوع غير فنى . وان رأى جمع من العلماء وأهل الفن فى موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لايختلف كثيراً مع رأي جمع من البنائين أو البدالين في ذلك الموضوع كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى فى كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وأمثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة العدول . وأقر القضاة أنفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من أعداء هذا النظام واليك ما كتبه

موسيو (بيراردى جلاجر) أحد رؤساء محاكم الجنايات فى مفكراته « أصبح الآن اختيار العدول فى يد نواب المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أمياهم السياسية وأحوال الانتخابات . وصارت أغلبية العدول من تجار أقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن ومن مستخدمي بعض المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه لان جميع الافكار يمتزج بجميع المهن فى وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث فى الايمان . ولان الطبقة الدنيا لاتخلو من أهل المروآت »

والذى يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها . ولا غرابة فى هذا الضعف لان المحامين والقضاة لايعرفون فى الغالب روح الجماعات ومنها العدول . والدليل على ذلك ماذكره الرئيس المشار اليه من أن (لاشو) وهو من أشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لاينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب ـ وما كان لغيرها أن يقيم هذا البرهان ـ على ان ذلك العمل كان عقيما حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة فى باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو « جلاجو » فلا هى أحسن مما كانت عليه ولا هى أردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلا فهم كما قال أحد المحامين « لايثبتون أمام امرأة ترضع طفلها أو أمام صغار يتامى اذا نظروا اليهم » قال موسيو (جلاجو) : ويكفي ان تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول

العدول قساوة القلوب على من يرتكب الجرائم التى يخشون هم منها . وهذه الجرائم هى التى تهم الهيئة الاجتماعية ـ ورحماء بمرتكبى الجرائم التى مصدرها الغيرة والحب وهكذا

فقلما يقسون على البنات الامهات اللاتى يقتلن مواليدهن ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لاخطر من مثل هـذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وأنه مادام القانون لايحمى البنت

التى هجرها من خدعها يكون نفع جنايتها أكبر من ضررها لان فى ذلك للخداع مزدجراً (١)

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ . لاحظ الرئيس (جلاجو) انهم ديموقراطيون فى جمعهم شرفاء فى عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة والشهرة . والاستعانة بمحام ذائع الصيت . وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى فى يد المتهمين

أراد بعضهم بيان الطريقة التى ينبغى استعمالها فى هـذا المقام فوصف أحد محامي الانجليز وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه امام محاكم الجنايات ومما قاله :

أول ما يجب على المحامي اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور العدول . والاقلال من التقرير والاستدلال أو اختيار السهل البسيط من الأدلة العادية كما هو الشأن مع بقية الجماعات (كان يترافع وهو يرقب حركات العدول وتحين مناسبة الوقت فكان يقرأ فى وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة والتجارب ليعرف ما ينبغى بعد ذلك وكان يتفرس أولا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم فى خطابه الخطوة الاخيرة التى تمكنه من انحيازهم اليه ثم يلتفت لمن يشعر منه بالانحراف عنه ويجتهد فى استكناه سبب ميله عن المتهم . وهذا أدق ما فى عمل المحامي . لان الاسباب التى تبعث الرغبة فى الحكم على رجل

---

(١) مما تجب ملاحظته أن هذا الفرق الذى جاء به العدول ـ لا عن قصد ـ بين الجرائم المضرة بالهيئة والتى لا تكاد تضرها لا يخلو من صواب اذ يجب أن يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقاً . غير ان الغالب على واضعى قوانيننا وعلى قضاتنا هى فكرة الانتقام التى كانت سائدة فى زمن الشرائع القديمة ودليلنا على هذا الميل فى قضاتنا أن الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذى يبيح ايقاف التنفيذ فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع أن جميع القضاة يعلمون جيداً أن تنفيذ العقوبة الاولى يجره حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل ذلك مبالغ فيه م) وكانى بالقضاة يعتقدون انهم اذا افلتوا محكوماً عليه لا يكونون قد انتقموا للامة فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الاجرام على عدم الانتقام

بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلا أم ظلماً)

ولقد تلخص فن الخطابة فى هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب فى عدم تأثير ما حضر منها من قبل هر اضطرار الخطيب الى تغيير الكلام طبقاً لاثره فى نفوس السامعين

وليس من الضرورى أن يكسب الخطيب ميل جميع العدول بل يكفيه اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكوّن رأى الاغلبية . فالذى يقود العدول انما هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك فى كل الجماعات . قال المحامي الذى مر ذكره «عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفى واحد أو اثنان من أهل العزيمة فى الرأى لاقناع البقية »

فالواجب اذن إقناع هذين الاثنين أو الثلاثة . باستعمال الحذق فيما يلقى فى نفوسهم . وأول ما ينبغى فعله هو الاجتهاد فى إعجابهم لان الرجل فى الجماعة اذا أعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع وقبل بالسهولة الأدلة التى تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت فى بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية « من المعروف عنه أنه كان فى مرافعاته إمام محكمة الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين أو الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم أصعب مراساً من البقية وانهم أهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة في الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقناعه أشد وسائل الخطابة ثلاثة أرباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً فى أول الصف الثانى وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تتدفق من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلا « سيدي الرئيس أتسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى امامنا فان الشمس تخدش عينى حضرة العدل السابع » فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع)

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم الفطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع أن وجودهم هو الضمان الوحيد الذي يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها (١) ومنهم من يذهب الى وجوب حصر اختيار

---

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على اعمالها ومع

العدول فى طبقة المستنيرين ولكنا أقمنا الدليل على أن قراراتهم فى هذه الحالة لن تختلف مع التى تصدر الآن . ومنهم من يتذرع بالخطأ الذى يقع من العدول فيذهب الى تبديلهم بالقضاة ونحن لاندرى كيف غاب عنهم إن ذلك الخطأ الذى بالغوا فى نسبته إلى العدول انما سبقهم به القضاة ، لان المتهم لا يمثل بين يدى أولئك الا بعد اعتباره جانياً من كثير من هؤلاء ، من قاضى التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام . ألا يرى انه لوسلم الحكم النهائى عليه الى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول الى إظهار براءته . ان يخطئ فقد أخطأ القضاة من قبلهم ، فالوزر على هؤلاء وحدهم فى كل خطأ قضائى مفزع كالحكم الذى صدر أخيراً على الطبيب (فلان) اذ اضطهده أحد قضاة التحقيق المعروف بقصر العقل لان شابة تكاد تكون من البله أتهمته بأنه أسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا ، ولولا ثورة الرأى العام وصدور العفو عنه لذلك عقب الحكم عليه لارسل الى سجن الاشغال الشاقة . ظهر فى هذه الحادثة أن خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار اجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه وكان القضاة أنفسهم مقتنعين بذلك لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم الى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البرىء . والحاصل انه متى كانت الدعوى ذات أحوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم أن

ماأتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الآن قانون مثل قانون (الافراج) الذى تفتخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا جميع الظالمين . ولكنا أقمنا فى كل مدينة قاضياً يتصرف فى شرف أهل الوطن وحريتهم كما يشاء . قويضى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفرة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه فى اجرامهم . وليس من يحاسبه على عمله . وله القدرة على ابقائهم فى سجنهم ستة أشهر بل سنة بحجة التحقيق ثم يخلى فى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار يفعل ذلك بمقتضى (أمر القبض) وهو مساو (لخطاب السجن) الذى عرفه اباءنا الاولون غير أن هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر وأما الاول فهو اليوم فى يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن أن يكون الاكثر تهذيباً والاكبر استقلالا

الذى حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل . وليت شعري من يكون المخطئ الحقيقى حينئذ العـدول أم القضاة . يجب أن نحرص على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لا يمكن أن يقوم الفرد مقامها . وهم الذين يتيسر وحدهم أن يخففوا من شدة القانون فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس أعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ . أما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب . ولا يعرفون الا النص وهم قساة بمقتضى صناعتهم . فلا يفرقون فى الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها . لـكن العـدول يشعرون بفطرتهم أن تلك الفتاة التى خدعت أقل إجراماً من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه وانها جديرة بكل عطف وحنان

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الاخرى . ولـكنى لم أوفق الى معرفة حالة أكون متهماً فيها بجرم وأفضـل القضاة على العدول ليحكموا فيها . لان بعض الأمل فى البراءة أمام هؤلاء والأمل ضعيف أمام أولئك . حذراً من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تلين الاولى ولـكن الثانية لا تلين أبداً

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب ـ طريقة اقناعها ـ الصفات التى يجب أن تكون للمترشح ـ ضرورة النفوذ ـ السبب فى أن العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم ـ سلطان الالفاظ والجمل على الناخب ـ صورة المناقشات الانتخابية. كيف يكون رأى الناخب ـ سلطان اللجان ـ فى انها تمثل أشد صور الاستبداد ـ لجان الثورة الفرنساوية ـ من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت قيمته ضعيفة ـ فى بيان أن النتيجة تكون هى بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين ـ فى معنى الاقتراع العام عند كل أمة

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب أعني المجامع التى تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة . ولما كان عملها محصوراً فى دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين أفراد معينين لا يظهر فيها إلا بعض الصفات التى تقدم بيانها فالذى يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل . وفقدان ملكة النقد . وسرعة الغضب . والتصديق . والسذاجة . ويرى فى قراراتها أثر القواد وأثر العوامل التى مرّ ذكرها ، أى التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى

فلنبحث فى طريقة إقناعها لانا إذا عرفنا أنجع الوسائل في ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

أول صفة يجب أن تكون للمترشح هى النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتي إذا فقد إلا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى أن الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التى تؤدى الى النجاح فى هذا الباب

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لانه العدة الكبرى التى تمكنه من التسلط على النفوس بدون أن يتناظر فيه . والسبب فى كون العملة والصناع لا ينتخبون

من ينوب عنهم من صفوفهم هو أنه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم واذا اختاروا فى النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكي يضربوا به أحد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائماً فينزع هذا إلى مخالفته متخيلا أنه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان

إلا أن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه فى الانتخاب لان الناخب يجب أن يتملق ويمنى بنيل مايصبو اليه من الرغبات فينبغي أن يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والامانى . فان كان عاملا فكل ذم فى معامه قليل . أما المترشح المزاحم فانه يجب أن يدخل اليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لا ثبات أنه أخس الناس وانه مجرم أثام . ومن البديهى أنه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك ، فان كان الخصم لا يعرف روح الجماعات مال إلى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل أن يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل فى النجاح

أما البرنامج الذى يحرره المترشح ببيان ماينوي من الاعمال فينبغى أن لا يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومه حجة عليه لكن يجب أن يطيل في البرنامج الشفهي مااستطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء أعظم الاصلاحات فان ذلك يؤثر حالا فى نفوس الناخبين وهو فى حل منه آجلا إذ القاعدة المطرودة أن الناخب لا يبحث أبداً فى هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التى كانت السبب فى انتخابه

ومن هنا يتبين أن جميع عوامل الاقناع التى تقدم ذكرها هى فى جماعات الانتخاب . بقى علينا أن نذكر الالفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحرى فى النفوس الخطيب الذى يعرف كيف يتصرف بها يمكنه أن يوجه الجماعة حيث يشاء . فلمثل (رأس المال الدنس) و (أولئك المحتالين الادنياء) و (العامل الجليل) و (جعل الاموال شائعة بين الجميع) وهكذا لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان كان الناس قد صاروا يمجونها . فاذا كان لمنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لايجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك أهواء النفوس المختلفة كان نجاحه باهراً وفوزه محتما . والذى أوقد نار الثورة الدموية فى اسبانيا سنة ١٨٧٣ انما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعانى المضطربة التى يفهم منها كل

واحد حسب ما يشتهي . ولقد يحسن بنا ايراده كيف كان ذلك نقلا عن أحد كتاب ذاك الحين قال « ظن المتطرفون أن الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع أن تكون الجمهورية اتحادية من غير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه . لان الصنيعة كانت قد أخذت بلب الناس أجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا فى طلاوتها وقالوا لو قامت فى الارض مملكة الفضيلة والسعادة » وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) وكان بعض الناس يسلم على بعض يقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) أما المعنى الذى كان يحضرهم من هذه التسمية فمنهم من كان يذهب الى انه عبارة عن اطلاق الاقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن ان النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة فى أمريكا . وآخرون يرون انه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم فى البلاد . والبعض كان يفهم أن كل سلطة قد بادت وأن الوقت حان لتصفية حساب الهيئة الاجتماعية . ونادى الاشتراكيون فى برشلونه وفى الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن البلاد الاسبانية . كلهم أحرار لا يحكمهم غير أنفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة . ولم يمض إلا قليل حتى أخذت الثورة تمتد فى الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقية والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة إلا نزعت الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق فى الاقاليم علامته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح فى كل صقع وناد

أما تأثير المعقول فى جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه إلا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى فى اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شىء غير تناول التوكيدات المتناقضة والشتائم والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لان أحد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح سؤالا يعجزه الجواب عنه . وذلك يلذ دائما للسامعين إلا أن هذه اللذة لا تدوم طويلا لان صوت السائل لا يلبث أن يغيب

فى صخب المعارضين . واني ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئاً مما يجرى فى الاجتماعات العمومية ليكون مثلا على ما تقدم . (أقام بعضهم اجتماعاً وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة وأسرع الفوضويون الى محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف فى وجههم الاشتراكيون فتلاكم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء . وبائع ذمته . وهكذا وخرج أحد الحاضرين وعينه مورمة . وانتهى الحال ببقاء اللجنة فى مكانها وسط الهياج والاصطخاب وتمت الرئاسة للوطني فلان وأخذ الاشتراكيون يقطعون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة . فقابلوه بالوغد . قاطع الطريق . الدنىء . وهكذا من النعوت . فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها ان الاشتراكيين من البله أو النصابين)

وهذا مثل آخر (نظم الحزب المنحاز لالمانيا مساء أمس فى قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال أول شهر مايو . وتقرر ان يكون الهدوء سائداً والسكون شاملا وقد طعن الوطنى فلان على الاشتراكيين بانهم أوغاد نصابون وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة . فاشتركت الكراسي والموائد فى الخصام الخ)

ولا يحسبن القراء أن هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة فى كل جمعية أياً كانت حتى التى تتألف من مستنيرين . وقد بينت ان الافراد فى الجماعات يتقاربون الى حد التساوى فى ملكات العقل . ونحن نجد الدليل على ذلك فى كل مكان . اليك ما دار فى اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلا عن جريدة الطان الصادرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ « كلما أوغل الليل ازداد الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون أن يقطع الكلام عليه اذ الصراخ كان يعلو فى كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات هؤلاء يصفقون وأولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين فترى العصى تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة والاصطخاب مقذوفاً الى المشوشين . هذا يقول أخرجوه وهذا يصيح الى منبر الخطابة . ثم قام موسيو فلان يخاطب الحضور بقوله هذا اجتماع ما أشد قبحه وجبنه . هذا اجتماع وحشى . دنىء . رذيل متعصب . ثم أعلن أنه سيهدمه الخ)

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء . غير أن هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التى توجد فى المجامع . وان آراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الاقناع والذى يكون الآراء ويجرى الانتخاب في الحالة التى تبحث فيها هي اللجان . واللجان يقودها فى الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم فى تأجيل ثمن ما يشربون . قال موسيو (شيرر) وهو من أكبر أنصار الديموقراطية فى الوقت الحاضر « أتعرفون ما هى لجنة الانتخاب . انها عبارة عن مفتاح نظاماتنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا . ان الذى يحكم فرنسا الآن هى اللجان (١)

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان المترشح مقبولا وذا يسار يفى بما يحتاج اليه فى مثل ذلك . فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين أنفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) فى مقاطعات عدة

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا أردأ وعليه فانى لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب العام . ولو أن الامر بيدى لأبقيته كما هو لاسباب عملية تنتزع من بحثنا فى روح الاجتماع . فلنذكرها لايسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس . فلا يمارى

---

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادى والشركات هى أشد الجماعات خطراً من حيث المقدرة . فهى التى تمثل اعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها . ولذلك كانت أقسى الجماعات يداً وأكبرها تسلطا فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم . فهم يضربون فى كل صوب آمنين . وما كان يخطر على بال أشد المستبدين عسفاً ان يأمر بمثل ما أمرت به اللجان الثورية التى فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس) . ظل (روبسبيير) قابضاً على الحكم كله بيده طول الزمن الذى كان ينطق فيه باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد فى الرأى وانفصل عنها أدركته الداهية . اجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان أعنى حكم القواد . ولن يهتدى الانسان الى حكم أشد وأقسى

فى ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية . وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للأمة . وعظمة المدنية لا تتوقف طبعاً على رأى العناصر الوضيعة التى ليس لها من القيمة إلا كثرة العدد ، ومن المحقق أيضاً ان آراء الجماعات خطرة فى غالب الاحيان فقد كلفتناحتى الآن غارات كثيرة على بلادنا واذا تم لها ماتعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون ان أهواء سيادة الأمة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً

إلا أن هـذه المطاعن القوية نظراً تفقد قوتها تماماً من الجهة العملية اذا فكرنا فى قوة الآراء التى لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التى وجدت فى القرون الوسطى من حيث الضعف فى كل . غير ان ماكان لهذه من القوة فى ذلك الزمان هو للأولى فى هذه الايام فهى منيعة حينئذ كما كانت أفكارنا فى تلك القرون . لنفرض أن رجـلا من أهل الافكار الحرة أى المطلقة السراح وجد فى القرون الوسطى أتظن أنه كان يتحرك لمقاومة الافكار الدينية المتمكنة فى القوم بعد أن يرى ما لها من السيادة المطلقة أو كان يفكر فى إنكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت اذا مثل أمام قاض يريد إحراقه بالنار بتهمة أنه حازب الشيطان أو ذهب الى المعبـد يوم السبت . أنه لا مناقشة مع الجماعات كما أنه لا جـدال مع العواصف . ولعقيدة الاقتراع العام فى أيامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية فى ذلك الزمان فترى الخطباء والكتاب يذكرونه مقروناً بالتجلة والاحترام مصحوباً بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر . وجب اذن أن يسار معـه كما يسار مع العقائد الدينية . وللزمان أن يفعل فى الجميع فعله . على أنه لا فائدة من التحفز لزعزعة هذه العقيدة مع وجود مايؤيدها فى الظاهر . ولقد أصاب موسيو (توكفيل) حيث قال (ليس لأحـد فى زمن المساواة اعتقاد فى أحد . لما بين الكل من التشابه . غير أن هذا التشابه يجعلهم يثقون تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورون أن الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين)

قد يذهب بعضهم الى أن حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب

على أهل الكفاآت . أما أنا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذى قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتساوون فى الجماعات دائما . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف فى مسألة عامة أحسن من رأى أربعين سقاء . ولا أظن أن رأياً أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو أن المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لان الذى يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية أو الرياضيات أو كونه معمارياً أو طبيباً بيطرياً أو طبيباً أو محامياً . انظر الى علماء الاقتصاد عندنا تراهم كلهم من المستنيرين وأغلبهم مدرسون أو أعضاء فى جمعية المعارف ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة أبداً كحماية التجارة أو توحيد معدن النقود وهكذا . ذلك لان علمهم ليس إلا صورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى أمام المسائل الاجتماعية التى لا حصر للمجهول فيها

وعلى ذلك اذا قصرنا الانتخاب على قوم أفعموا علماً لا نصل الى نتيجة أحسن مما لو تركناه في يد أهل زماننا لان أولئك العلماء يعملون على الاخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم فلا نكون قد ذللنا شيئاً من العقبات التى امامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذى تنفرد به الطوائف

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التى للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاماً أو محصوراً فى طبقة أو طبقات فى جمهورية أو ملوكية فى فرنسا أو فى البلجيك أو اليونان أو البرتقال أو اسبانيا ومتوسط المنتخبين فى كل أمة يمثل روح شعبها . وهو لا يكاد يتغير من جيل إلى جيل

وهنا نجد مرة أخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى وتلك النظرية الاخرى المشتقة منها وهى ضعف تأثير النظامات والحكومات فى حياة الامم إنما تسير طبقاً لارواح شعوبها وبعبارة أخرى طبقاً لما ورثته عن آبائها وهو ما تمثله تلك الروح فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك الاحتياجات هى الملوك الخفية التي بيدها زمام مآلنا

الفصل الخامس

المجالس النيابية

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد الجماعات النيابية — بساطة الافكار — الانفعال وحدوده — الافكار الثابتة والافكار المتقلبة — السبب فى أن التردد هو الغالب — شأن القواد — سبب نفوذهم هم الذين لهم الكلمة فى المجلس بحيث أن رأى الجميع يرجع الى رأى عدد محدود من الاعضاء — سلطان القواد الشامل — اركان خطابتهم — والالفاظ والصور — فى ان الضرورة تقتضى ان يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الآراء وان يكونوا من قصار النظر — فى انه يستحيل أن تقبل آراء الخطيب الذى لا نفوذ له — غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئة . فى انها تتحرك أحياناً بحركة نفسية — فى جلسات « المتعاهدين » — فى الاحوال التى لا تكون للهيئة فيها صفة الجماعة — تأثير الاختصاصيين فى المسائل الفنية — منافع النظام النيابى امضاره فى كل امة — فى ان النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدى لى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً . خلاصة الكتاب

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهي تتشابه كثيراً في صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان ولروح الشعب فيها أثر هو إضعاف تلك الصفات أو تقويتها . إلا أنه لا يمنع من ظهورها . البتة ونتشابه المجالس النيابية فى البلاد المختلفة كاليونان وإيتاليا والبرتقال وأسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابهاً عظيما فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك أمام جميع الحكومات

النظام النيابى هو أقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة فى العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد فى الناس — وان كان علم النفس يراه خطأ — وهو أن عدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت فى الامور بالعقل والروية والاستقلال

والصفات المميزة للجماعات توجد فى المجالس النيابية من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير . والغلو فى المشاعر ونفوذ القواد . إلا أن لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لا تشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

أما بساطة الافكار فمن أهم مميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصاً عند الامم اللاتينية الميل الى حل المسائل الاجتماعية العويصة بابسط المبادىء النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال ، ومن الواضح أن المبادىء تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل فى الجماعة يرمي دائماً إلى تقدير تلك المبادىء باكثر من قيمتها ويذهب فيها الى آخر ما تؤدى اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التى تمثلها المجالس النيابية هى المتطرفة

وأكمل مثل لبساطة المجالس النيابية جماعة (اليافبة) أيام ثورتنا الكبرى . فقد كانوا كلهم من أرباب المذاهب وكلهم من المناطقة . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقتولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادىء المقررة من غير التفات لظروف الاحوال فصح ما قيل عنهم من أنهم عبروا الثرورة ولم يروها فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا أنهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية الى مدنية كانت للامة قبل تطورها الحالى . كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق أحلامهم من أبسط الوسائل فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وان كانوا فرقاً شتى

وأما التأثر بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة والتأثير يأتي من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها إلا أن لقابلية المجالس النيابية فى هذا الباب حدوداً واضحة يجب ذكرها

فلكل عضو رأى ثابت فى المسائل المتعلقة باقليمه لايمكن زحزحته عنه ولا تؤثر فيه حجة أودليل فلو بعث (ديموستين) ماأمكنه أن يقنع عضواً بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض أصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك لان التأثير الذى وقع عليه أولا من الناخبين أوجد له رأياً ثابتاً وعطل فيه ملكة

بما يخالفه . ولعل أحد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم فيه كان يشير إلى تلك الافكار التى رسخت من قبل فى ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال « سمعت مدي خمسين عاما قضيتها فى (ويستمنستر) آلافا من الخطب فالقليل منها حملنى على تغيير رأيي ولكن لم يكن لواحدة منها أن تحملنى على تغيير صوتي عند الاقتراع »

واذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة أو تقرير ضريبة جديدة وهكذا تقلبت الآراء وظهر نفوذ القواد لكنه لايساوي مالهم فى الجماعات الاعتيادية . إذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصاً يهدم المبدأ الذى أقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم ثم الاقرار فى الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثراً بعد عين

وضح مما تقدم أن لكل مجلس في كل دور أفكاراً ثابتة وأخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هى المسائل العامة كان التردد فى الآراء هو الغالب لما يجتمع في نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد في المجالس

على أن القواد هم أصحاب الكلمة فى أغلب المسائل التي ليس للاعضاء فيها رأي ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون فى كل هيئة نيابية عند جميع الامم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين فى كل مجلس . لان الرجل فى الجماعة لايستغنى عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابة لاتمثل إلا رأى عدد صغير من أعضائها

والقليل من تأثير القواد فى تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيرة مستمد من نفوذهم . برهانه انهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم

وهذا النفوذ شخصى لادخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الامثلة ماأتى به موسيو (جول سيمون) فى عرض كلامه فى مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذى كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابليون شيئاً مذكوراً قبل أن يتم له السلطان بشهرين »

ارتقي (فكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحا بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس پايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله . قال لى (فولايل) عن (پايات) انه لايحب أفكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا . كذلك (ادجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته

والمجالس النيابية هي المكان الوحيد فى الارض الذى يضعف فيه نور الذكاء الفائق فليس هناك للفصاحة قيمة إلا ما وافق منها أحوال الزمان والمكان . ولا اهتمام إلا بالخدم التى أديت للاحزاب لا للوطن . واذا كانت المجالس النيابية قد أكبرت شأن (لا مارتين) سنة ١٨٤٨ و (تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك إلا بتأثير الضرورة الشديدة الحالة ولهذا بعد ان زال الخطر شفى الناس من واجب الشكران ومن الخوف معاً »

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لامن البيان الذى اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً بأحوال النفس اذ الجماعة لاتكون كذلك اذا عرفت لقائدها ماقد يكون أداه من الخدم للوطن أو للاحزاب على حد سواء والجماعة انما تطيع قائدها موقنة بسلطان نفوذه فيها من دون أن يقترن ذلك عندها بمنفعة أو شكران

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذى كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما أوتى من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفى لقلب الوزارة وقد أوضح أحد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب فى الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة أضعاف ماتساويه وبكوننا لم نضع فى مدغشكر إلا قدماً متزعزعة . وبكوننا غبنا فى مملكة كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا أضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص فى الديار المصرية إلا أن نظريات موسيو (فلان) قد كلفنا من الخسائر أكثر من مصائب نابوليون الاول (١)

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كلمانسو الذى سمى هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لغير المؤلف رأيه فى الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع فى رئاسة نظارها ونظارة خارجيتها وله فى السياسة العامة مقام كبير (م)

على أنه لا ينبغى تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان أكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأى العام . ولم يكن الرأى العام إذ ذاك فى المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن . ومن النادر أن يسبق القائد الرأى العام والغالب أنه يسير خلفه ويتبعه فى الخطأ

للقائد فى اقناع قومه وسائل غير النفوذ هي التى ذكرناها مراراً . ولابد له فى قيادتهم من أن يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من طريق الوجدان وعرف طريقة الكلام معهم . فينبغي له على الاخص أن يعرف مالبعض الالفاظ من التأثير الذى يجذب نفوس السامعين وأن يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التي تقوم بالتوكيد الشديد الخالى من الدليل وبالصور الآخذة المحلاة بالحجج الناقصة . هذه فصاحة موجودة فى كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزى الذى هو أكثرها اعتدالا

قال الحكيم الانكليزى (ماين) « من السهل أن نقرأ دائماً مداولات لمجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فلمثل هذه الصيغ الكلية تأثير كبير فى خيال أهل الديمقراطية المحضة . ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة إذ قدمت لها بألفاظ جذابة ولو كانت من القضايا التى لم يحققها أحد . وربما كانت لاتحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك أنه لاحدّ لتأثير « الالفاظ الجذابة » المذكورة . وكم أتينا على بيان قوة الالفاظ والجمل . وما ينبغى أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة وإليك جملة تمثل ماتقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجلسنا « يوم يركب السياسى الافين والفوضوى السفاك ظهر باخرة واحدة تقودها الى منفاها فى الاراضى الحمية ذلك هو اليوم الذى يتحادث فيه الرجلان ويظهر كل واحد منهما لأخيه ممثلا احدى صورتى نظام اجتماعى واحد »

فالصورة التي يمثلها هذا المقال واضحة . وقد شعر خصوم الخطيب كلهم انهم مهددون بها . فهم يرون الاراضى الحمية مقرونة برؤيه الباخرة التى تقودهم اليها لأنهم من حزب أولئك السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم الفزع الذى كان يدخل قلوب « المتعاهدين » إذ يسمعون (روبسبير) يهددهم

بمنجلة (١) الاعدام فيدينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التى لايجوز فى العقل تصورها . فمن ذلك ماأكده الخطيب الذى نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه أحد معارضة تذكر من أن أرباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت . وان مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذى يستحقه الفوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائماً أثر فى الجماعات . ولا يرمي الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد كما أنه لاحرج عليه واذ تعسف فى الطعن واشتد فى الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير فى السامعين لانهم ان جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة أو الاشتراك مع المجرمين

سادت هذه الفصاحة فى المجالس النيابية فى كل زمان كما قدمنا وهى تشتد فى أزمنة الشدة . ومن أفيد المطالعات قراءة الخطب التى كان كبار الخطباء يقولونها فى مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحينا لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة ثم تنهمر الشتائم من أفواههم على الظالمين . ويقسمون أنهم اما أن يعيشوا أحراراً وإما أن يموتوا . ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة ثم يسكن جأشهم فيجلسون

قد يكون القائد أحياناً ذكياً متعلماً ولكن ذلك يكون مضراً به فى الغالب لان الذكى يميل الى بيان مافى المسائل من أوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم وذلك يؤدى الى التسامح والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة . وحدة العقيدة لازمة للرسل . وكان أكبر القواد فى الامم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً وكان أكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً فى العقل فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو « روبسبيير » ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لايجد مايعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار . قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على كل لسان وشقشقة فى الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا فى

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

نفس خلوها أكثر من انحطاطها نفس تكاد لاتعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ماتعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله « هل من مبارز » وليس هناك رأي ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة فاذا فرغ القارىء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف (كاميل ديمولان)

من المفزعات ماينال الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله على أنه لابد لاستجماع ذلك في الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالالهام يهديها الى معرفة الرجل الذى أودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته

انما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بمالهم من النفوذ لا بقوة البراهين التى يقيمونها . وأصدق شاهد على ذلك أنه إذا وقع لاحدهم ما يفقدهم نفوذه فانه يفقد معه تأثيره أعنى قدرته على ادارة الآراء كما يشاء

وأما الخطيب المجهول الذى يذهب الى الجلسة بعد أن يكون قد أعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه إلا الحجج والأدلة فلا رجاء له حتى فى الاصغاء اليه وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو أحد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذى لا نفوذ له فى السطور الآتيـة « اذا استوى — الموصوف — على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقاً فنشرها أمامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئناً . وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيـدته لتسكين روح سامعيه . لانه وزن أدلته وحررها . واعد شيئاً كثيراً من الاحصاآت والحجج . وأيقن أن الحق فى جانبه وان معارضه لا يثبت امام الحقيقة الناصعة التى تأتى بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه واصغاء اخوانه لاعتقاده انهم لايطلبون إلا السجود امام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون . وما السبب يا ترى فى هذا الانصراف العام . وما الذى يدور على ألسنة أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم . وما السبب القوى الذى يحمل ذاك على ترك مجلسه . يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام ويشجعه

الرئيس فيعود بصوت مرتفع . فيزيد الاعضاء فى عدم الاصغاء اليه . فيجهر ويهتر . فتزداد الجلبة حواليه . ويعود لا يسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى ثم يخشى أن يدعو سكوته الى أصوات (الاقفال الاقفال) فيرجع الى خطابته بما فيه من قوة . وهناك تعلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون »

ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت فى الهياج الى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية فى مشاعرها . وتذهب الى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف فى القسوة اذ ذاك لا يصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير ما يخالف منافعه كل المخالفة

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك الى أى حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وان خالف أعز المنافع لدى أفرادها . كان من أكبر الضحايا أن يتنازل الشرفاء عن امتيازاتهم ومع ذلك فعلوه غير مترددين ذات ليلة من ليالى « الدستورية » وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذراً لهم بالويل والدماء ولكنهم فعلوا وماخشوا تقتيل بعضهم بعضاً ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم انه مسوق الى الاعدام لا محالة كما يسوق هو اليوم اخوانه اليه غير انهم كانوا قد وصلوا الى حالة من التهيج حملتهم كآلات تتحرك من نفسها على ما وصفنا فلم يعد هناك من الاعتبارات ما يقوي على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم . اليك ما قاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكر « ما كنا لنريد القرارات التى يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحد ولكن المحنة هي التى كانت تمليها » وما أصدق ما كتب

كانت جلسات التعاقد منفردة باللاشمورية كما عرفت بالهياج قال تين « لقد أقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له أشد الجزع ولم يكتفوا فى ذلك بالحماقيات والجنونيات . بل شرعوا الآثام وقتل الابرياء واعدام الاصدقاء وانضم حزب الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال (دانتون) الى المنجلة وكان رئيسه الطبيعي وموجد الثروة وقائد زمامها ومال اليمين الى

الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد أفظع الاوامر التى أصدرتها الحكومة الثورية وبين أصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربوا) و (كوطوز) و (روبسبيير) فجدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصده. اصطلح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على إعدامهم ثم فى يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير »

قد يكون الوصف أقتم ولكنه الحق الواقع. والصفات المتقدم ذكرها توجد فى المجالس النيابية المهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو « سبوللر » وهو شورى لا يشك أحد فى صدق أفكاره الديمقراطية وصفاً دقيقاً نذكره للقراء نقلا عن (المجلة الادبية) ويرى القارىء فيه جميع المشاعر المتطرفة التى قدمنا ذكرها وتتمثل فيها التقلبات الشديدة التى تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة الى أخرى، قال موسيو « سبوللر »

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التى لا نهاية لها أوردت الحزب الجمهوري حتفه، فلقد كان له من السذاجة ما لا يساويه إلا سوء ظنه المطلق، لايدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى. ذعر وآمال لا تنتهى حالتان يستوى فيهما الريفى والطفل فسكونهما يضارع قلقهما ووحشيتهما تماثل طاعتهما. ذلك شأن المزاج الذى لم يرتب والتربية التى انعدمت لا يندهشان لامر وكل أمر يفقدهما الصواب. يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة. فيقتحمان النار. ويجفلان من الظل. ويجهلان العلل والمعلولات. ويسارعان الى الفتور مسارعتهما الى التهوس. فيهما استعداداً للفزع والذهول. ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذي ينبغي أبداً. ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الألوان. ويتشكلان بكل الصور. أى رجاء فى حكومة تؤسس فوقهما »

لكن من حسن الحظ أن جميع الصفات التى أتينا على ذكرها فى المجالس

النيابية لا تظهر دائماً لان تلك المجالس لا تكون جماعات إلا فى بعض الاحايين والغالب أن كل عضو من أعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها أن تسن من القوانين الفنية ما هو حسن للغاية . نعم أن الذى يضع هذه القوانين انما هو اختصاصى واحد يحضرها فى سكون مكتبته وكل قانون أقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله . ولكن القوانين التى وضعت بهذه الكيفية هى أحسن مايشرع وانما يكون القانون ضاراً اذا أدخلت عليه فى الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة . ذلك لان صنع الجماعة أحط درجة من عمل الفرد دائماً وفى كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع فى الاعمال المضرة التى لا يهذبها الاختبار فالاختصاصى يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر فى المجالس ولا تأثير للمجالس فيه

المجالس النيابية هى أحسن الوسائل التى اهتدت اليها الأمم فى حكم نفسها وبالاخص فى التخلص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ما عليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة . وهى على التحقيق أرقى أشكال الحكومات ان لم يكن عند الكافة فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التى تتكون منها ذروة الحضارة فى الامم

على إننا اذا نظرنا اليها من الجهة العملية لا نرى لها إلا ضررين كبيرين الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه . والثانى الترقي فى تحديد الحرية الشخصية

فأما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية فاذا قدم أحد الاعضاء طلباً لسد حاجة اجتماعية ديموقراطية ولو فى الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لا يسع الاعضاء الآخرين أن يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يهبط الميزانية ويفضى إلى تقرير ضريبة جديدة . إذن يستحيل عليهم الرفض . أما نتائج الزيادة فى المصروفات فهى بعيدة ولا تأثير لها فى أشخاصهم إلا قليلا بخلاف ما لو رفضوا الطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف أمام الناخبين وما ذلك اليوم ببعيد

وهناك سبب قوى آخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطرار لمنح المصروفات المحلية إذ لا يجرأ عضو في المجلس على رفض طلبها لكونها فى منفعة

الناخبين مباشرة ولانه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه إلا اذا أقر ما يطلبه زملاؤه لمراكزهم (١)

وأما الضرر الثانى وهو التدرج فى تقييد الحرية الشخصية تدرجاً قهرياً كذلك فهو ضرر محقق وان كان أقل وضوحاً من الاول . وهو نتيجة القوانين العديدة التى لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة أفكارها ولكونها تحسب أنها مضطرة لتقنينها وليست القوانين إلا قيوداً

والظاهر أنه لا مفر من هذا الخطر لان انكلترا نفسها لم تتمكن من اتقائه مع أن نظامها النيابى أكمل النظامات لان النائب الانكليزى أكبر النواب استقلالا أمام ناخبيه . وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد إلى أن الزيادة الظاهرية فى الحرية الشخصية لا تلبث أن تتبع بنقص حقيقي فيها . ثم عاد إلى هذه النظرية فى كتابه الذى سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله « جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذى أشرت اليه . فما أسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمى الى

---

(١) ذكرت جريدة (ايكونوميست) فى عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التى تتكلفها تلك المصالح المحلية فى سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديدية فكان كما يأتى :. الخط بين (لانجاى) وسكانها (٣٠٠٠) نسمة وهى منزوية فى أحد الجبال و (پوى) خمسة عشرة مليوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران) سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (پراد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين وهكذا . وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التى تقرر انشاؤها فى سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقا تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروابوليو) عضو جمعية العموم . ولا يخفى أن استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدى الى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك فى اوربا مثل البرتقال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما أصبح قادما عليه مثل ايتاليا . الا انه لا داعى للاهتمام كثيراً بما ذكر لان الناس قبلوا نقص الفائدة التى تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار اربعة الاخماس من دون امتعاض كبير . وهى تفاليس محكمة التدبير تسمح لامها باصلاح ميزانياتها . على أن الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب أشد وانكى . وقد دخلنا فى زمن التفكك والتحلل العام . فعلينا الرضا بالعيش يوماً بيوم . وان لا نهتم بالغد لانه ليس فى ملكنا

تحديد الحرية الشخصية . وذلك من طريقين . الاول ان كل سنة قد أربت على سابقتها فى كثرة اللوائح التى تلزم الافراد بواجبات كانوا أحراراً منها . وتفرض عليهم أعمالا كانت مباحة ان شاؤا فعلوها وان شاؤا أهملوها . والثانى زيادة الضرائب العامة التى يجب على الافراد القيام بها وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد فى المال الموكول صرفه إلى مشيئة الموظفين العموميين »

وهذا الترقى فى تحديد الحريات يظهر فى جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر) وهي أن احداث تلك القوانين المقيدة ينتج حتما زيادة عدد الموظفين المكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى نفوذهم ومآل أولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين . لان طائفتهم هى التى لا ينالها أثر التقلبات المستمرة التى تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها فى الوظائف فهى الطائفة الوحيدة التى لا تبعة عليها من أعمالها ولا شخصية لاحد فى مجموعها وهى باقية على الدوام . ومن المعلوم أن أشد صور الاستبداد هى التى اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث

ان الاستمرار على سن هذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتى تحيط بكل حركة من حركاتهم وان صغرت بسور من الاجراآت (البيزنطية) من شأنه أن يضيق دائرة العمل الذى لا قيد فيه لكن الامم قد خدعت فى خيالها فحسبت أن الاكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواة وصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلا

على انها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النير كل يوم يفضى بها الى تطلبه وفقدان ملكة الاقدام وقتل العزيمة فتصبح حينئذ أثراً بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا إرادة ولا صلابة ولا قوة

واذا فقد الانسان المقدمات فى نفسه اضطر الى طلبها فى غيره وكلما ازداد عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة . هنالك تضطر الى ابدال أقدامهم على الاعمال بأقدامها والقيام مقامهم فى الاخذ بيد المشروعات كلها والتداخل فى تنظيم سير الافراد دونهم لانهم أضاعوا ملكة ذلك كله — وتصبح الحكومة مكلفة بان تعمل كل شىء وتدير كل شىء وتحمي كل شىء فتصير الها قادراً . الا أن التجربة دلت على أن قدرة مثل هذا الاله لم تكن قوية ولم تدم الا قليلا

والظاهر أن الترقي فى تقييد الحريات عند بعض الامم التى تظن أنها متمتعة بها لما هي فيه من الاطلاق الصورى ناشىء من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام كان . وذلك نذير دور الانحطاط التى لم تنج منه مدنية حتى الآن

واذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التي تبدو من كل صوب حكمنا بان عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة قد وصل الى أقصى حدود الهرم الذى هو طليعة الانحطاط . والظاهر أنه لابد لجميع الامم من عبور هذه السبيل لان التاريخ يروي لنا انه دور كثيراً ماتجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التى تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهو الذى نريد أن نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لاسباب قوة الجماعات

اذا سبرنا المدنيات التى سبقت مدنيتنا فى حالتيها الرقي والانحطاط فما الذى نعثر عليه

نعثر فى فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعتهم عفواً الهجرة والاغارات والفتوحات ولكونهم اختلفوا فى المعتقد وتباينوا لغة ودينا لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها . وفى تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بارقى صورها فلها منها الائتلاف الوقتى . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شيء من ذلك . ان هم إلا قوم متوحشون

ثم دار الزمان فادى وظيفته . وأخذت جامعة البيئة وتكرار التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر أثرها شيئاً فشيئاً وبدأت أجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض وتكون شعباً أى تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم . هكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الامة أن تخرج من دائرة الهمجية

على أنها لاتخرج منها الا اذا تكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لايتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها الحصر . وسواء كان المقصد العام الوهية روما أو تعظيم أثينا أو نصرة الله فهو يكفى لتوحيد أفكار أفراد الامة وهي فى دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون وينجر الشعب وراء مقصده ويصل الى ماينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام نعم تعرض له

أحوال يكون فيها جماعة الا أنه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوى أعني روح الشعب فهى التى تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظاماً مسنوناً

فاذا أتم الزمان صنعة الايجادى يبدأ بصنعه الاعدامي الذي لم ينج منه عابد ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى وقفت أسرع اليها الانحطاط لا محالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الأجل

علامة تلك الساعة التى لامفر منها تكون دائماً ضعيف اليقين بالمقصد الذى اتكأت عليه روح الشعب . وكلما انزوى عود هـذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التى كانت تستمد حياتها منه

كلما انزوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه . وداعى وحدته . وموجد قوته وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير أن ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية . ووراءه انطماس الاخلاق . وضعف القدرة على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذى كان يكون أمة ـ أى وحدة وان شئت فقل كتلة ـ جمعاً مؤلفاً من أفراد غير مؤتلفين . لا رابطه بينهم إلا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات . ومتى وصل الناس الى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتـداء الى طريقة يحكمون بها أنفسهم جدوا فى طلب من يقودهم فى جميع أعمالهم وان صغرت فتأتي الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شىء

واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الامـة . فتعود خليطاً من الناس كل يعمل على شاكلته . وترجع الى ما كانت عليـه فى بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية . فلا شعور . ولا أمل هنالك تنعدم أساطين المدنيـة . وتمسى هدفا لحوادث الاتفاق . وتصير العامة سلطانة فى الناس . وتبدو طلائع المتوحشين وقد يلوح على المدنية انها باقية فى بهائها لان محياها لايزال يضىء بما اكتسبه الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ولكن الحقيقة انه بناء أكله السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأى عاصفة

فمن همجية الى حضارة وراء مقصد فى الخيال . ومن حضارة الى انزواء . فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار حياة الأمم

تم

فهرست

صحيفة

٣ مقدمة المعرب
٥ مقدمة المؤلف

٩ تمهيد

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى — فى أن تغييرات المدينة العظيمة نتيجة أفكار الأمم — اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات — فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها القتليدية — كيف تسود سلطة طبقات الأمة وكيف تجرى تلك السلطة — النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات — فى ان الجماعات لا تستطيع إلا الهدم — فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها — فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية — أهمية الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسى

١٦ الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الاول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس — فى أن مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لا يكفى لتكوين جماعة — فى اتحاد وجهة أفكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم — فى أن الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور — انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية — انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً — فى أن ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن أو أردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم — سهولة اندفاع الجماعة إلى الشجاعة وإلى الشر

٢٣ الفصل الثانى

مشاعر الجماعات واخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب ـ الجماعة ألعوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة ـ البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جدا تمحى امامها المنفعة الخاصة ـ لا شىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية ـ تأثير لاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق ـ طاعة الجماعة للمؤثرات ـ فى أنها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة ـ علة اجماع أفراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة بعض امثلة للخيالات التى يتأثر بها أفراد الجماعة كلهم ـ فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة ـ فى أن اتفاق العدد العديد من الشهادات من أردأ الادلة على إثبات أمر معين ـ ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة و بساطتها ـ الجماعة لا تعرف الشك ولا التردد تذهب دائماً إلى التطرف ـ فى أن مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى أن الجماعة قليلة المسالمة ميالة إلى التسلط والامرة والمحافظة على القديم ـ فى علة تلك الصفات ـ فى خنوع الجماعة أمام السلطة القوية ـ فى أن نزوع الجماعة إلى الثورة وقتا من الاوقات لا يمنع من كونها محافظة للغاية ـ فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والثرق

(٥) فى أخلاق الجماعة ـ قد تكون أخلاق الجماعة أحط كثيراً من أخلاق افرادها وقد تكون أرقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها ـ علة ذلك وامثلته ـ قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع إنها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله ـ شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

صحيفة الفصل الثالث

٢٩ أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) افكار الجماعات ـ الأفكار الاساسية والأفكار التبعية ـ فى اجتماع الافكار المتناقضة ـ تغير الأفكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها ـ أثر الافكار

فى الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ـ درجة تعقل الجماعة منحطة دائماً ـ لا تشابه ولا تلازم بين الأفكار التى تجمع الجماعات بينها إلا فى الظاهر

(٣) تخيل الجماعات ـ شدة تخيل الجماعة ـ إنما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها أصلا ـ إنما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ـ خلابة الاشياء وما فيها من الأقاصيص هما أساس المدنية الحقيقية ـ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة فى الامم ـ كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير فى تخيل الجماعات

صحيفة

الفصل الرابع

٤٦ الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ماهو الشعور الدينى ـ الشعور الدينى مستقل عن عبادة الالوهية ـ مميزات الشعور الدينى ـ قوة المعتقدات التى لها صيغة دينية ـ أمثلة شتى ـ فى أن آلهة العامة لم تزل ـ فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة ـ الشكل الدينى للألحاد . أهمية هذه المبادئ من الجهة التاريخية ـ فى أن الاصلاح أو قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هى إثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

صحيفة

٥٠ الباب الثانى

افكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الاول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وافكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ فى أن ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وماله من التأثير الاول ـ فى أنه مستودع ما ترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ أهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ فى أنها تصير مضرة بعد أن كانت لازمة ـ فى أن الجماعات أشد احتفاظاً للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيىء اسرار المعتقدات ثم زوالها ـ فى إنه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ فى الخطأ فى تقدير تأثيرها ـ فى أن تأثيرها ضعيف جدا ـ فى انها آثار لامؤثرات ـ فى أنه لايتيسر للامم أن تختار منها ما تظنه الاحسن . فى ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ فى أنه لابد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظريا لجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية ـ خطاء الناس فى أفكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم فى الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاءآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ فى التأثير الذى يمكن أن يكون للتعليم ـ أمثلة عن امم مختلفة

صحيفة

الفصل الثانى

العوامل القريبة في افكار الجماعات

٦٦ (١) الصور والالفاظ والجمل ـ فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية ـ فى أن قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيق ـ فى أن تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم ـ كثرة الالفاظ أمثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة ـ الفائدة السياسية من اطلاق أسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت أسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات . اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم ـ اختلاف معنى ديموقراطية فى أوروبا وفى أمريكا

(٢) فى الاوهام ـ فى أهمية الاوهام ـ فى أن الاوهام موجودة فى أساس كل مدنية ـ ضرورة الاوهام فى الاجتماع ـ فى أن الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) يجوز أن تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم أوهاماً ضارة ـ انما تؤثر التجارب اذا كثرت ـ ما تقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) العقل ـ عدم تأثيره فى الجماعات ـ فى أنه لا يمكن التأثير فى الجماعات إلا من طريق مشاعرها الغريزية ـ شأن المنطق فى التاريخ ـ فى الاسباب الخفية للحوادث الخارجية عن المعقول

صحيفة

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

٧٧ (١) قوادا لجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى فائدة تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم إيجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد والتكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى أن الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاماً

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وانواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى امثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

صحيفة

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

٩٣ (١) فى المعتقدات الثابتة ـ فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة ـ فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية ـ فى صعوبة ازالتها ـ فى ان التعصب احد فضائل الامم من بعض الوجوه ـ فى ان بطلان معتقد عقلالا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة ـ فى أن الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير ـ فى أن تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد ـ فى حدود هذا التغير الحقيقة ـ فيما يكون فيه التغير ـ فى أن زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار ـ فى أن أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال ـ فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق ـ فى أن تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

صحيفة

١٠٣ **الباب الثالث**

اقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الاول

أقسام الجماعات

أقسام الجماعات العامة — انواعها

(١) الجماعات المختلفة العناصر — اوجه اختلافها — تأثير الشعب — فى أن روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية — فى أن روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

(٢) الجماعات المؤتلفة العناصر — أنواعها — الاقناء والطوائف والطبقات

صحيفة الفصل الثانى

١٠٧ الجماعات الجارمة

يجوز أن تكون الجماعة جارمة شرعاً لكنها لا تعد كذلك فلسفياً — فى أن افعال الجماعة لا شعورية محضة — امثلة شتى — روح جماعة شهر سبتمبر — افكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

صحيفة الفصل الثالث

١١١ العدول المحلفون امام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول — فى ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم — كيف يتأثر العدول — ضعف تأثير الدليل العقلى — طريقة الاقناع التى استعملها أشهر المحامين — الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها أو التى يقسون من أجلها — فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

صحيفة الفصل الرابع

١١٧ جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب — طريقة اقناعها الصفات التى يجب ان تكون للمترشح — ضرورة النفوذ — السبب فى أن العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم — سلطان الالفاظ والجمل على الناخب — صورة المناقشات الانتخابية — كيف يتكون راى الناخب — سلطان اللجان — فى أنها تمثل أشد صور الاستبداد — لجان الثورة الفرنساوية — من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت قيمته ضعيفة — فى بيان ان النتيجة تكون هى بذاتها اذا فصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين — فى معنى الاقتراع العام عند كل أمة

صحيفة الفصل الخامس

١٢٤ المجالس النيابية

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد فى الجماعات النيابية — بساطة الافكار — الانفعال وحدوده — الافكار الثابتة والافكار المتقلبة — السبب فى أن التردد هو الغالب — شأن القواد — سبب نفوذهم — هم الذين لهم الكلمة فى المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع إلى رأى عدد محدود من الاعضاء — سلطان القواد الشامل — أركان خطابتهم — والالفاظ والصور — فى أن الضرورة تقتضى أن يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الآراء وأن يكونوا من قصار النظر — فى أنه يستحيل أن تقبل آراء الخطيب الذى لا نفوذ له — غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئة — فى انها تتحرك أحياناً بحركة نفسية — فى جلسات «المتعاهدين» — فى الاحوال التى لا تكون للهيئة فيها صفة الجماعة — تأثير الاختصاصيين فى المسائل الفنية — منافع النظام النيابى ومضاره فى كل أمة — فى أن النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدى الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً — خلاصة الكتاب

تم

مجلد ١
٨
محمود حسنة محمد مهدى
السوطى

893.785
L49

SEP 3 1964

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU59020415
893.785 L49 Ruh al-ijtima /